A 84

طه حسين

أديب

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

طه حسين

أديب

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

أخى العزيز

وددت لو أسميك ولكنك تعلم لماذا لا أسميك وحسب الذين ينظرون فى هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المعزين لى حين أخرجنى الجور من الجامعة وأول المهنئين لى حين ردنى العدل إليها. وكنت بين ذلك أصدق الناس لى ودًّا فى السر والجهر وأحسنهم عندى بلاء فى الشدة واللين.

فتقبل منى هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لإخائك الصادق الخالص..

طه حسين

١

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس . فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ولا يشعر بشىء إلا أعلنه وهو إذا نظر فى كتاب أو خرج للتروض ، أو تحدث إلى الناس فأثار شىء من هذا فى نفسه خاطراً من الخواطر ، أو بعث فى قلبه عاطفة من العواطف أو حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأى ، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر فى دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس.

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التى يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه ، و إنما يحس للناس ، وهو لا يشعر لنفسه و إنما يشعر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه و إنما يفكر للناس. وهو بعبارة واضحة لايعيش لنفسه و إنما يعيش للناس . وهو حين يأتى من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضللها أقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير . و إنما يريد أن يشرك الناس فى هذا الخير الذى أنتجته طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية ، فاذا كان متواضعاً ، معتدل الرأى فى نفسه فهو شقى تعس محزون ، يحب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه .

وربما لم يرف نفسه إيثاراً ، ولم يحس أنه شقى وإنما آثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلا أو كثيراً فهو يسجل مايحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية ، وكثيراً ما تعرض له الفرص التى تحمله على أن يستعرض حياته الماضية ، والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التى يتكون منها تاريخه الفردى الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها ؟ وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع ، ويعللها بهذه الألوان من التعلات . وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب ، لا يستطيع أن يعيش إلا اذا كتب ، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغى ألا يعرفه القرطاس أو يجرى به القلم كما أنه حين يأكل ويشرب ويدخن قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ . إنما هى حاجة تضطره إلى الحركة ، فيتحرك وتدفعه إلى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها فى يوم من الأيام حين تصبح أمراً مقضياً لا منصرف عنه ولا سبيل إلى التخلص منه .

إذا كان هذا كله صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن يكون صاحبي الذى أريد أن أتحدث إليك عنه أديباً . فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلاً أضنته علة الأدب ، واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئاً ، ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً إلا فكر فى الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق فى الصورة الأدبية التى يظهر فيها ما أحس ، وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة فى إخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيراً ما كان يقول لأصحابه إذا رأى شيئاً أسخطه أو أرضاه : ما أخلق هذا الشيء أن ينشىء صورة أدبية ممتعة للسخط أو الرضاء! وكان يقضى نهاره فى السعى والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا إلى نفسه ، أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط الحروف أمام عينيه الزائغتين ، ويأخذه دوار فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوى إلى مضجعه ليستريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً ، وما كانت أحلامه فى الليل إلا فصولا ومقالات ، وخطباً ومحاضرات . ينمق هذه ويدبج تلك ، كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها . وكثيراً ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من

هذه الفصول والمقالات التى كانت تمليها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعا

وكثيراً ما كان يقرأ عليهم فصولا من النثر و مقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته ، وسجلتها يده حين كان يخلو إلى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء و بما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان أصدقاؤه إذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه فى أن يذيع ذلك و ينشره ، فيبتسم ثم يهزأ ، ثم يمتنع عليهم و يلح فى الامتناع ، لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد إلى أن يكون خليقاً بأن يقدم إلى المطبعة ، فهو كان يخاف المطبعة و يكبرها و يحيطها بشىء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن مايقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شىء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان ، و بما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان ، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعاً .

وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى ولا قربان يختار . وأنه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه ، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله . فما زالت الآماد بينه و بين المطبعة بعيدة . وما زالت الأستار والسجف دونه مسدلة .

فليكتب إذاً لنفسه لا للمطبعة ، فإذا ضاق بنفسه و بما تملى فليظهر

أصدقاءه على شىء منه وليرض هذه الحاجة القوية التى نحسها جميعاً إلى أن نشرك الناس فيما نجد من حس أو شعور . والحق أن صاحبى لم يكن يقدم على هذا إلا كارهاً مضطراً حين لا يجد بداً من الإقدام . أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم . وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض جسمه عارياً على الناس . ولكن أصدقاءه لم يكونوا فى حاجة الى أن يروا شخصه عارياً . وكانت حاجتهم شديدة الى أن يروا نفسه كما هى ، لأنها كانت جميلة خلابة تروعهم حيناً . وتثير فى نفوسهم الحب والمودة دائماً .

كان قبيح الشكل نابى الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه ، وكان إلى القصر أقرب منه الى الطول . وكان على قصره عريضاً ضخم الأطراف مرتبكها كأنما سوى على عجل ، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص ، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد . وكان وجهه جهماً غليظاً يخيل إلى من رآه أن فى خديه ورماً فاحشاً ، وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف فى الدقة ، منبطح غال فى الانبطاح ، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم .

لم تكن قد تقدمت به السن ، بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد . كان على قصره مقوس الظهر إذا قام ، منحنياً إذا جلس ، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة ، و إسرافه فى الانحناء على الكتاب أو القرطاس هما اللذان شوها

قده هذا التشويه . وقلما كان وجهه يستقيم أمامه ، إنما كان منحرف العنق دائماً إلى اليمين أو إلى الشمال ، وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة ، إنما كانتا مضطربتين دائماً لا تكادان تستقران على شيء حتى تدعاه مصعدتين فى السماء ، أو تنحرفا عنه إلى ما يليه من إحدى نواحيه .

ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا ، وإنما كان غليظا فجا ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه إذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال . وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً مخيفاً ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل . وكثيراً ما ضايقه ذلك حين كان فى باريس . وكثيرا ما حمل ذلك الناس عامة ، وأصدقاءه خاصة ، على أن يضيقوا به ويجتنبوه إذا لقوه فى قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل .

وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس إلىّ ، وأكرمهم علىّ ، وآثرهم عندى ، وأحسنهم مسلكا إلى نفسى ، ومنزلا من قلبى . كان يزورنى فأنصرف إليه عن كل شيء وأقضى معه الساعات ، فاذا تركنى خيل إلىّ أنى لم أقض معه إلا اللحظات القصار . وكنت إذا أعيانى الدرس واحتجت إلى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم إلىّ القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة

٢

فقد عرفته فى القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ، ثم أدركته فى باريس بعد أن سبقنى إليها . عرفته مصادفة وكرهته كرهاً شديدا حين لقيته لأول مرة ، كنا فى الجامعة المصرية القديمة فى الأسبوع الأول لافتتاحها، وكنت أختلف إلى ما كان يلقى فيها من المحاضرات ، حريصاً عليها مشغوفا بها معتزما أن لا أضيع حرفا مما يقول المحاضرون . وكان مجلسى لهذا دائماً قريباً من الأستاذ . فإنى لمصغ ذات ليلة إلى الأستاذ وإذا بصوت من ورائى ينطلق بالحديث هادئاً ، ولكنه على هدوئه يغمر أذنى جميعاً ، ويكاد يخفى علىّ صوت الأستاذ فأجد فى التخلص منه فلا أفلح ، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباى اللذان يكتنفاننى .

فنلتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت إلا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجعه مرة أخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه إلى الأستاذ فيضطره الأستاذ إلى الصمت . حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا فى غلظة ، فاذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه ، قهقه قهقهة مخيفة ، وقال فى صوت ما نشك أن الأستاذ قد سمعه : « وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر ، فكل شىء عندكم قيم ، وكل شىء عندكم جديد . »

واجتهدنا بعد ذلك فى أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا . فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتى أو قفطانى وهو يسألنى : « أأعجبتك المحاضرة؟» فان قلت : « نعم » قال : « وماذا أعجبك منها ، وهل فهمتها على وجهها ؟» وكان يقول لى : « هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تتهالك عليها هذا التهالك ، فهى أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع » .

فلما ألح على فى ذلك سألته : وإذا كنت ترى هذا الرأى فما اختلافك إلى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات؟ وما تهويشك علينا بصوتك العالى وحديثك الذى لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شىء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن فى الجامعة إلا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون فى كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافياً لأن أختلف إلى الجامعة وأستمع للمحاضرات . ثم سألنى ذات يوم : أين تقيم ؟ أجبته : أقيم فى حى كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم فى الأزهر أو فى المدارس المدنية . قال : إن منزلك بعيد وليست بيئتك بالتى تحب . فأنا لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك وأتحدث إليك فأطيل الحديث ، بل أنا حريص على أن أقرأ معك بعض الكتب ، فلا بد إذاً من أن نلتقى ، ومن أن

نلتقى فى نظام واطراد ، فليكن ذلك عندى ، ولك على أن أردك إلى أهلك وأصدقائك قبل أن يتقدم الليل ، دون أن تجد فى ذلك مشقة أو تحتمل فيه عناء .

وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض فى لهجة الحازم الواثق بأن أمره سيطاع ، وقد هممت أن أرد عليه معتذرا ، وما كان أكثر المعاذير !

فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف الى أحد دون إذن من أخى ، وكان على أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول ، ولم يكن بد من أن أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر ، وأن أعوض هذا الوقت الذى أضيعه كل مساء فى الجامعة على كره من أخى فى القاهرة ، وأسرتى فى الريف .

هممت أن أعتذر ، ولكنه لم يمهلنى ولم يتح لى أن أقول حرفا ، وإنما استوقف عربة ودفعنى فيها دفعا ، وأمر خادمى الأسود الصغير أن يجلس إلى جانب السائق ، وجلس هو إلى جانبى وقال للسائق بصوته الغليظ العريض : إلى القلعة . وكنت أسكن فى أقصى الجمالية . فلما أخذت أقدر بعد الأمد بين داره ودارى ، وهممت أن أتكلم ، وضع يده على كتفى وقال : ألم أقل لك إنى سأردك إلى حيث تقيم ؟!

٣

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة ، ومضت بنا فى أجواء متباينة ، وكنت أحس اختلاف الأحياء ، وتباين الأجواء فيما يصل إلى من أصوات

الناس وحركاتهم ومن اضطراب الأشياء من حولنا ، كما كنت أحس ذلك فى سير العربة نفسها وفى لهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه ويطلب إليهم أن يتنحوا له عن الطريق أو أن يجنبوا أنفسهم خيله وعربته .

كان الحى رشيقاً أنيقا ، وكان الجو سمحاً طلقاً ، وكانت الحركات والأصوات من حولى لا تخلو من شدة وعنف ، ولكن فيها ظرفا وتأنقا ، حتى إذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد أمامنا الزحام ، وكثر من حولنا الصياح ، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط بأصوات الرجال من العمال وسائقى عربات النقل ، وانتشرت فى الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار . وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم الناس له وتأنيبهم إياه ، وتردد فى الهواء هذا الصوت المعروف الذى يحدثه السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التى يردعون بها الخيل وينبهون بها المارة . ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، ويخف الهواء وتهدأ الحركة ، ويتنفس السائق مطمئنا ، وتمشى الخيل رفيقة . ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربة ذات اليمين ، وإذا نحن فى حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت فى أرضها الأخاديد. فالعربة تقفز بنا قفزاً ، والسائق يهز سوطه فى الهواء ، ويحذر وينذر فى هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ إلى أن تفتح ، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم يعبثون بالسائق. ومنهم

من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ، ونحن نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت وراءه ، ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه بألفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل إلى الشتم القبيح ، وكل ذلك يصل إلى نفسى فيحدث فيها آثارا مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق فى شىء واحد هو الطرافة ، لأنى لم أكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة وننزل من العربة ، وإذا صاحبى يقول لى : لم نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا إلى حيث لا تستطيع العربة أن تمضى ، فهل تعودت التصعيد والرقى فى الجبل ، فأنا لا أحب أن أسكن فى السهل المنبطح فأكون كغيرى من الناس . وإنما أحب أن أشرف على القاهرة ، وأن أخيل إلى نفسى أنى لست منغمسا فيها ، وأنى أدخلها إذا غدوت إلى عملى مع الصبح وأخرج منها إذا رحت الى بيتى مع الليل . ولست أخفى عليك أنى أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطاً إليها من هذه الربوة كأنى أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر على فريسته ، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين أمضى النهار كله فى المدينة مضطرباً مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضاً مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركا للناس فيما يأتون من خير وشر ، نافعا ضارا منتفعاً محتملاً للضرر ، حتى إذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بى ، وأويت إلى جامعتكم هذه الجديدة أريح نفسى بما أسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف ، ولكنه على كل حال ليس بذى غناء ،

حتى إذا أخذت بحظى من هذه الراحة الأولى ، رحت إلى بيتى ، فلا تسل عن هذا الشعور العذب الذى يغمر قلبى شيئا فشيئا كلما دنوت من هذا المكان ، أحس كأنى أنسل من المدينة ، وأتخفف من أثقالها وألقى آثامها من ورائى وأطهر جسمى ونفسى من أوضارها وأدرانها ، حتى إذا رقيت هذه الربوة و بلغت قمتها هذه — وكنت قد أحسست الجهد من التصعيد فى طريق عالية ملتوية — وقفت وقفة من كان فى مكروه فخلص منه . وأرسلت زفرة يخيل إلىّ أنها تحمل بقية ما علق بنفسى من شر المدينة ، ثم تنفست ملء رئتى مرة ومرة ، ثم أقبلت هادئاً مطمئناً قصير الخطى إلى هذا الباب . وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا .

٤

وانعطف بنا إلى اليمين فمشينا خطوات ، ثم انتهى بنا إلى دهليز ، فرقينا درجات ، وخادم صبية تسعى بين أيدينا وقد حملت فى يدها اللطيفة سراجا صغيراً يضطرب منه ضوء ضئيل ، حتى إذا بلغنا أعلى السلم وقف يبحث فى جيبه عن بعض الشىء ، ثم أخرج مفتاحاً فأداره فى قفل أمامه حتى إذا فتح له الباب صاح صيحة عريضة أن اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام

ولم أكد أسمع هـذه الجملة حتى انحنيت إلى حذائى أريد أن أخلعه حقاً ، وأى غرابة فى ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء مرات فى كل يوم ، حين كنت أختلف إلى الدروس فى الأزهر أو فى جامع محمد بك ، أو فى

جامع العدوى ، أو فى جامع الأشرف . هناك حيث كنت أستمع لدروس الأصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد ، وتعودت خلع الحذاء حين كنت أزور بعض الدور ، ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ، ولا سيما هذا الشيخ الذى كان الخديو قد نفاه من الأزهر نفياً وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه إلى داره وألححنا عليه فى أن يمضى فى إلقاء ما كان يلقى علينا من الدروس لا حباً فى علمه ولا تهالكاً على شخصه ، ولكن تحدياً لذلك السلطان الذى كنا نراه جائراً متحكماً ، ولا نريد أن نذعن لجوره ولا لتحكمه ، وآية ذلك أننا نشرنا فى الصحف خبر إلحاحنا على الأستاذ ، واستجابة الأستاذ لنا ، واختلافنا إلى داره فى الضحى من كل يوم نسمع منه الأصول فى بعض الأيام ، والمنطق فى بعضها الآخر .

هنالك فى الدرب الأحمر كنا نبلغ الدار مختلفين ، فبعضنا يتخذ أحذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ أحذية الأفندية ، وكلنا كان يخلع حذاءه ، إذا بلغ المنظرة ، فلم أجد إذاً غرابة فى أن يطلب إلىّ صاحبى أن أخلع نعلى حين بلغنا غرفته هذه ، فلعل ما كان يغطى أرضها من بساط أو حصير كانت تقام عليه الصلاة ، كما كانت تقام على ما يغطى أرض المساجد وأرض منظرة الشيخ من بساط أو حصير . ولكنى لم أكد أنحنى على حذائى لأخلعه حتى امتلأ الجو حولى بضحك عريض رائع مخيف ، ثم امتدت إلى يد صاحبى الغليظة فردتنى إلى اعتدال القامة ، وصاحبى يقول : ما ذا تفعل ؟

أفتظن أنك فى الأزهر ؟ أو هذا كل ما علمته من البيان ؟ قلت فى شىء من الدهش عظيم : وأى غرابة فى أن تخلع النعال عند أبواب الغرف ؟ وأين يكون البيان وأبوابه من خلع النعال ؟ قال : يا سيدى إنهم يدرسون لكم فى الأزهر التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية. وما أشك فى أنك تستطيع أن تعيد على كل ما سمعته من هذا ، ولكنك تملأ صدرك بما لا تفهم ولا تحسن الانتفاع به ، فانى لم أرد أن تخلع نعليك ، وإنما أردت أن تكبر هذه الغرفة التى بلغتها والتى ستدخلها ، لأنها غرفة العلم والأدب ، ومستقر الأسفار والكتب ، ومهبط الوحى إن كان ما يقع فى نفس رجل مثلى يريد أن يكون أديباً شيئاً يمكن أن يسمى وحياً . فلو أنك تدرس علم البيان درس فهم وانتفاع حقاً ، لما أعياك أن تفهم عنى ما كنت أريد . قال ذلك فى صوت غليظ يقطعه هذا الضحك الذى يصور السذاجة والمكر وحب السخرية فى وقت واحد ، ثم أخذ بيدى ومضى معى حتى أجلسنى على كرسى أمام مائدة لم أكد أضع عليها يدى حتى لمست كتابا .

وكانت الخادم فى أثناء ذلك ما زالت قائمة وفى يدها اللطيفة سراجها الصغير . فالتفت إليها مغضباً ضاحكا معا ، وهو يقول : وما وقوفك أنت هنا كالصنم ؟ ثم خفض صوته قليلا وقال : ومع ذلك فان منظرها جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن .

ولم تنصرف الصبية بسراجها ، وإنما ظلت فى مكانها حتى مد يده إلى سلسلة تضطرب فى الجو فجذبها إليه فى شىء من العنف ، حتى إذا هبط

إليه المصباح المعلق فى السقف أضاءه ورفعه ، وقال للصبية انصرفى الآن وعشينا إن كان عندك طعام .

ثم جلس منى غير بعيد وأشار إلى غلامى الأسود الصغير أن استرح حيث تشاء ، و بدأ حديثه معى فى لهجة الحازم الجاد . فقال: والآن يا سيدى يجب أن ندع اللغو فما جئنا هنا لنلغو ولا لنلهو ، وأن نأخذ فى الجد فللجد وحده أقبلنا ، فحدثنى من أنت ، وسأحدثك من أنا حتى إذا عرف كل منا صاحبه أخذنا فيما ينبغى أن نأخذ فيه . قلت: فانك تنظم الأمر كما تحب ، تتحكم فى ذلك تحكما غريباً ! لا تسألنى عن شىء ، ولا تستشيرنى فى شىء ، فانى لم أطلب إليك أن أجىء إلى هذا المكان ولا أن آخذ معك فى لغو أو جد . قال مقاطعاً : فأنت لا تريد إذاً أن تحدثنى عن نفسك حتى أحدثك عن نفسى . فسأحدثك عن نفسى ولكن بعد أن أنبئك أنى أعرفك حق المعرفة ، وكنت خليقاً أن تعرفنى لولا أنك حديث السن .

ثم قص علىّ من أمرى ما كنت أظن أنه أبعد الناس عن العلم به ، ولكنى لم أدهش لذلك حين ذكر لى اسمه وتحدث إلىّ عن أسرته ، وأنبأنى بأنه من هذه القرية التى ليس بينها و بين مدينتنا إلا ساعة أو بعض ساعة للذين يمشون على الأقدام ، وأنه قد نشأ فى مدينتنا ، أو أكثر التردد عليها حتى كأنه نشأ فيها ، وأنه قد تعلم القراءة والكتابة فى نفس الكتاب الذى تعلمت فيه ، وقد عرف إخوتى الذين سبقونى إليه ، وقد ظلت المودة متصلة بينه و بين بعضهم حتى تركت أسرتنا هذه المدينة إلى أقصى الصعيد . وحتى

هبطنا نحن إلى القاهرة نطلب العلم فى مدارسها المختلفة .

منذ ذلك الوقت تقطعت الأسباب أو رثت بينه و بين من كان يود من إخوتى ، يسألنى عنهم واحداً واحداً ، وأنا أجيبه ، ثم أسأله عن نفسه كيف تعلم وماذا يعمل الآن ؟ فينبئنى بأنه أتم درسه الثانوى منذ أعوام ، واتصل بوزارة الأشغال يعمل فيها كاتباً فى بعض الدواوين يختلف إليها وجه النهار ، و يعكف آخر النهار وجزء غير قليل من الليل على القراءة والدرس حتى كلف بهما أشد الكلف ، وأصبح عمله فى الوزارة وسيلة آلية ، على حين هو عند أترابه من الشبان غاية لا يلتمسون غيرها غرضاً من أغراض الحياة .

ولم يكد يتقدم الحديث بيننا فى هذه الشؤون حتى أقبلت الخادم تزيل ما على المائدة من كتب لتهيئها للأطباق وآنية العشاء . وقد زالت الكلفة بيننا وأخذت أسمع منه وأتحدث إليه كما يكون الأمر بين إلفين قد بعد العهد بما بينهما من المودة والحب والمخالطة ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف ولا عناية بما يقولان .

وما هى إلا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم نلبث أن وجدناها مشتركة بيننا ، وكلها متصل بحياتنا فى الريف .

٥

قال لى فى بعض ما كان يقول ، وقد هدأ نشاطه وانخفض صوته ، ورقت لهجته ، وجعل يتحدث إلىّ كأنما يهمس همساً وكأنما يصدر

صوته عن نفس متأثرة أشد التأثر ، وقلب يملؤه الود والحنان . ولو أنى استطعت أن أرى وجهه فى تلك الساعة لما شككت فى أنى كنت خليقاً أن أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات الحنان .

قال لى فى هذا الصوت العذب : « هبنى فى القرية ، وهبك فى المدينة ، وهبنى أريد أن أزورك لأقضى معك شطراً من النهار ، فأين ألقاك » ؟

قلت : « إنما يزار الناس فى دورهم » . قال : فإنى لا أريد أن أزورك لأنى لا أريد كلفة ولا حرجا ، ولا تقيداً بهذه الأوضاع التى يتقيد بها الناس ، ولا سيما الشباب والصبية ، حين يتزاورون فى الدور ، حيث الآباء والإخوة الكبار . إنما أريد أن ألقاك حراً ، طلقاً ، لاتحسب حساباً لشىء ولا لأحد ، وأحب أن تلقى عن رأسك هذه العمة الثقيلة التى تضطرك إلى وقار لا أحبه لك ، ولا أرضاه منك ، وأن تخرج من هذه الثياب التى لا يلبسها إلا الشبان الذين تقدمت بهم السن إلى ضحوة الشباب ، فأنت فى آخر ليل الطفولة ، وفى أول فجر الشباب . قد أخذت نفسك تتفتح للحياة وتبسم لها ، وتخرج من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر الأشياء ، وأن تزنها وأن تحكم عليها فى هذا الغرور الجميل اللذيذ ، الذى يخيل إلى الغلمان أنهم رجال ، ويلقى فى روعهم أن آراءهم موفقة دائماً ، وأن أحكامهم صائبة دائماً ، وأن الكبار من الرجال يخطئون ، حين يسيئون الظن بهم ، ويرونهم صغاراً ، ولا يشركونهم معهم فى كبار الأمور .

ألق إذاً هذه العمة ، واخرج إذاً من هذه الجبة ، ومن هذا القفطان ، وعد إلى ثوبك الواسع الفضفاض ، الذى كنت تلبسه قبل أن تهبط إلى القاهرة ، والذى كان يمتاز من ثياب أترابك من أهل الريف بضيق كميه وتكسرهما بعض الشىء عند آخرهما ، وبهذا التكسر المنظم على الصدر ، وفى أعلى الظهر وبهذا الحزام العريض الذى كان يتصل به عند الخصر ، ولكنه لا يحيط بالجسم كله وإنما هما قطعتان قد خيطتا على جانبى الثوب من يمين وشمال ، ثم وصلت إحداهما بالأخرى أزرار من الصدف . عد إلى هذا الثوب وضع على رأسك ذلك الغطاء الرقيق الأبيض الذى يسمونه الطاقية وما هو بالطاقية وإنما هو شىء يصطنعه المترفون من أهل المدن فى الأقاليم يقلدون به بعض قلانس الفرنجة ويسمونه الطاقية الإفرنجية .

عد إلى هذا الزى ، وسأخرج أنا من هذا الزى الأوربى وأعود إلى الزى الذى كنت أصطنعه فى الريف حين لم أكن أذهب إلى المدرسة فأدخل فى ثوب من الصوف ، مفتوح على الصدر ، وأتخذ على رأسى الطربوش ، كما يفعل المترفون من أبناء العمد ، فأنت تعرف أنى ابن عمدة وسأزورك ماشياً لا أركب لهذه الزيارة فرساً ولا حماراً ، لأنى أريد أن أكون حراً طلقاً ، وأن أقضى معك وقتاً لا يشغلنى فيه التفكير فى فرس أو حمار .

عد إلى زيك القديم وسأعود إلى زيى القديم وانتظر أن أزورك ، وحدثنى أين ألقاك ، على ألا يكون اللقاء فى بيتك فأنا أعرفه حق المعرفة ،

ولا أريد أن أجلس فى المنظرة ، ولا أريد أن أجلس فى ظل هذه العنبات التى تقوم إلى جانبها ، ولا أريد أن ألعب فى هذا الفناء ، الذى ينبسط أمامها والذى ترونه واسعاً وأراه ضيقاً ، والذى يحب أبوك أن يجلس فيه إذا كان العصر ، والذى يؤثر سيدنا أن يقرأ فيه القرآن كل يوم قبل أن تطلع الشمس .

إنما أريد لقاء حراً ، فى مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا إذا تحدثنا ، أو يسألنا أين تذهبان إذا أردنا أن نمضى أمامنا وألا نلزم مكاناً بعينه .

قلت وقد أثر فى نفسى حديثه وصوته ولهجته وما أثار من الذكرى ، فرجعت إلى ذلك الطور الذى كنت فيه حين فارقت المدينة لأهبط إلى القاهرة ، ورجعت إلى ذلك الزى الذى وصفه والذى كنت أعود اليه كلما عدت إلى الأقاليم .

قلت : فستلقانى إذاً فى طريقك جالساً أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت فى الحديث وفى النظر إلى من يأتى من الغرب ، أو من يذهب إليه ، وإلى النساء وهن يذهبن إلى الإبراهيمية ليملأن جرارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رءوسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همساً بينهن ، أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح ، أو فى الاستماع إلى حديث هاتين المرأتين اللتين

تكتنفان الدكان عن يمين وشمال، إلا أن إحداهما تلاصقه والأخرى قد أقامت دارها فى الناحية الأخرى من الشارع . أتعرفهما ؟ قال : كما تعرفهما ، فأما الأولى فزنوبة ، وأما الأخرى فأم محمود . كلتاهما تجلس على باب دارها وتتحدث إلى صاحبتها ألوان الحديث ، فى صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ولين ، وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا لحديثهما وليدخلوا فيه من حين إلى حين ، حين يكون الحديث دعابة ، وما أكثر مايكون الحديث دعابة بينهما ، فهما لاتحسنان فى الحياة إلا الدعابة وكسب المال . قلت : فستلقانى جالساً على أحد هذين الصندوقين، فقد تعودت أن أقضى وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما فى أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص والوعظ ، لا ينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قراءتنا إلا حين تأتى امرأة أو فتاة لتشترى بعض الملح ، أو الفلفل أو الخيط ، أو مايباع عندهما من سقط المتاع .

قال: فقد انحدرت إليك من الغرب، ولم أكد أهبط من الجسر حتى مررت بهذه الدور التى تعرفها فحييت حسن كوزو وهو جالس أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبناؤه ، وهم يلغطون لغطهم المتصل ، ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيته لاستوقفنى ولسألنى : فيم أقبلت ؟ وكيف تركت أبى ؟ وما بال أبى لا ينحدر إلى المدينة ؟ وما أشك فى أنه كان سيستبقينى ، ولعله كان يلح على فى أن أتغدى

عنده ، فهو حريص على أن تتصل المودة بينه و بيننا ، ولكنى جزت الدار سالمًا لم ألق أحداً ولم أتعرض لهذا الإكرام الذى كنت أخشاه . وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث إلى صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه ، إنما كنت معتزلا على صندوقك ، قد انثنى أعلاك على أسفلك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس من حولك قائمون ، منهم من يشترى ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من يمنح طرفه زنو بة ، ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان المارد ابن العمدة ، يذهب فى الشارع ويجىء ، متحدثاً متغنياً ، يلقى نظره خلسة إلى هذه الحارة عن عن يمين الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامرأته الشابة ، وحماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .

وهأنذا أنتهى إليك فأضع يدى على كتفك ، وها أنت ذا تذعر لمكانى منك ، ولكنك لا تكاد تسمعنى أحييك حتى تطمئن إلى وتبتسم لى ، وتدعونى إلى الجلوس ، ولكنى آبى ذلك عليك ، وأنهضك وآخذ بذراعك ثم نندفع معاً فى هذا الشارع الذى يكاد يواجه بيت زنو بة ونمضى معاً إلى القناة .

أنظر ها نحن هذان قد بلغنا القناة ، فأما عن يميننا فحديقة جرجس أفندى ، ثم المنحدر إلى بيتكم ، وأما عن شمالنا فخيام العرب ، الذين اختاروا هذا المكان مضرباً لخيامهم ، والذين يخفرون هذا الطرف من أطراف المدينة . إلى أى الوجهين تريد أن نمضى ؟ أتريد أن نمضى إلى

يمين لنبلغ المدينة ، أم تريد أن نمضى إلى شمال نحو الغرب لنبلغ الإبراهيمية ، فنأوى إلى ظل شجرات التوت ، أو نمضى أمامنا فى هذه الحقول التى لا تكاد تنتهى . أم تريد أن نعبر القناة فليس عبورها شاقاً ولا عسيراً ، فهى جافة فى هذه الأيام ؛ ألست تحس من حولك هؤلاء الصبية ، وهم يلعبون فيها ، ويلتمسون ما تخلف فى طينها من صغار السمك ؟ إلى أين تريد أن نمضى ؟ إننا إن عبرنا القناة ، لم نمض غير قليل فى هذا الفضاء الواسع الطلق حتى نبلغ الخط الحديدى ، فاذا عدوناه فقد انتهينا إلى المدينة من طريق قريبة . إلى أين تريد أن نمضى ؟

وما أرانى محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنت تريد من غير شك وأنا أيضاً أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فانها يسيرة مألوفة ، وهى طريق الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون إليها ، وهى خليقة أن تقدم لنا من ضروب اللهو وألوان العبث والمتاع ما نبتغى . فليس بيننا و بين حديقة المعلم إلا خطوات . ها نحن هذان قد بلغناها ، وآثرنا أن نميل إليها فنجنى من ريحانها ، ونقتطف من أثمارها ، ونستظل بأشجارها ساعة لنتحدث فيما تعودنا أن نتحدث فيه ، إنها لجميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة ، ولم يعمل فيها المنسقون ، وإنما هى حرة مطلقة ! ينبت فيها الزهر والشجر كما يريدان فى غير قيد ولا نظام ، وإنها لجميلة حين تتقدم فى رشاقة وخفة بما تحمل من زهر وثمر ، وورق نضر وأغصان لدنة إلى القناة ، كأنها تريد أن تهدى هذا كله إلى هذا الماء حين يجرى فيها قوياً هادئاً موفور النشاط مع ذلك كأنه إله شاب من آلهة الأساطير .

أنا أعلم أنك تحب هذه الحديقة وتجد لذة فى أن تخلو فيها إلى نفسك فتقص عليها ما تتصور من الأحداث والخطوب ، أو تعيد عليها ما تسمع من القصص والأحاديث . وما ملت بك إليها إلا لأنى أعلم أنك تحبها وتؤثر أن تقضى فيها ساعات بعيداً عن الناس قريباً منهم فى وقت واحد . فأنا أعلم أنك لا تحب العزلة الخالصة ، ولا تحب الخلطة الخالصة ، ولكنى أحس الآن كأن مكانك ينبو بك ، وكأنك لا تطمئن إلى الحديقة أو كأن الحديقة لا تريد أن تتلقاك بما تعودت أن تتلقاك به من البشر والأنس والحنان .

أحس أن جسمك كله يضطرب كأنه يكره السكون ، ويدفع إلى الحركة دفعاً . ماذا تنكر من هذه الحديقة ؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة ؟ لم لا تريد أن تخلو إلىّ كما تخلو إلى نفسك ، وأن تقص علىّ كما تقص على نفسك ما تعيده عليك الذاكرة أو ما يخلقه لك الخيال . ها أنت ذا أشبه شىء بالجواد الجموح الذى يعض شكيمته ، ويضرب الأرض بسنابكه ، ويكاد يخرج من جلده مرحاً وشوقاً إلى العدو . إلى أين تريد أن تمضى ؟

وهو يقول هذا كله فى لهجة جد واقتناع ويقين حتى ينسينى مكانى منه ، ومكانه منى ، ومكاننا من القاهرة ، وحتى يقنعنى بأننا صبيّان ، أو شابان نقصد إلى النزهة فى ريفنا ذلك البعيد ، وقد سمعت منه ، وآمنت له ، وهممت أن أجيبه . ولكنه منطلق لا يريد أن يقف ، متدفق لا يريد أن يهدأ ، يسأل ولا ينتظر الجواب ، وإنما يجيب هو ويمضى فى حديثه لا يلوى

على شيء ، وأنا أسمعه وأتبعه ، وهو يسرع فى الحديث ، وكأنه يسرع فى الحركة ، حتى يُعيينى سماعه ، ويعجزنى اتباعه . ولكنه ماض فى حديثه ، ماض فى حلمه ، لا يقف عند شيء ، ولا يلوى على شيء . والغريب أنه كان يتحدث فيثير فى نفسى مثل ما يثير فى نفسه من الذكرى . ثم يتحدث عنى وعما أحب فكأنما أنا أتحدث عن نفسى .

قال : فإنك لا تريد البقاء فى هذه الحديقة لأن نفسك لا تتهيأ للخلوة ولا للحديث الهادئ المطمئن ، وإنما أنت اليوم مهيأ للحركة والنشاط الجسمى ، وما أرى أنك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشى جهداً ثقيلا ، ولولا أنك شديد الحياء ، وأنك تخشى المصاعب والعقبات ، لآثرت العدو ولكلفت بالجرى السريع . فهلم إلى الطريق العامة فليس لك فى هذه الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعاً يشبه العدو ، ولكنك لم تطاوعنى إلا قليلا . وهأناذا أحس أن قدميك تثقلان وأن نشاطك ينال منه الفتور ، وأنك تؤثر مشياً رزيناً هو إلى التلكؤ أدنى منه إلى الجد والسرعة . لقد فهمت أن مكانك من هذه البيوت الأربعة التى تنتظم على شاطئ القناة فى نسق بديع وقد امتدت أمامها حدائقها الواسعة ذات الشجر الملتف والأغصان المتدلية على الأسوار . وأنت تريد أن تسعى سعياً هيناً إلى جانب هذه الأسوار ، وأن تداعب بيدك هذه الأوراق الخضر النضر لأنك تجد فى مسها راحة ولذة ونعيما لنفسك وهدوءاً لقلبك الذى قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وأن تعبث بهذا اللبلاب الذى يتلوى على سور المأمور ، تريد أن تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ، ولكنك تعلم أنه لا يستقيم ، ولا يحب الاعتدال . ثم أنت تريد أن تطيل الوقوف عند بيت الملاحظ . وما أظن إلا أن نفسك تنازعك إلى أن تطرق الباب ، وتدعو عثمان أو محموداً . فمن يدرى ! لعل أحدهما أن يستجيب لك وأن يدعوك إلى الدخول لتتحدث إليه ، أو إليه و إلى أخيه ساعة من نهار . إنك لشديد المكر ، وإن نفسك لشديدة الالتواء . لم تكذب على نفسك ؟ وتكذب على ؟ إنك لا تريد عثمان ، ولا تحب الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تدخل الدار وأن تقطع إليها هذه الحديقة العريضة متلكئاً بعض الشئ ، متكلفاً بعض الأناة والمهل . حتى إذا بلغت الدار وأجلست فى هذه الحجرة المتواضعة التى لا تمس القدم فيها أرضاً عارية كالتى تمسها حيث تلعب فى بيتك أو حيث تجلس عند الدكان ، وإنما تمس أرضاً قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك فى هذه الحجرة لا تلق إلى صاحبيك إلا إحدى أذنيك ، أو بعض ما تستطيع أن تلقيه منها . فأما أذنك الأخرى فمرسلة إلى داخل الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق . إنك لا تريد عثمان ولا تبتغى الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تسمع أحد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة فى الغصن المورق اللدن . بل أنت أسعد الناس إن أتيح لك الاستماع الى الصوتين جميعاً .

أيهما آثر عندك وأحب إليك ؟ صوت هذه الفتاة الناهد التي تسمى عزيزة والتي توشك أن تلعب معك ومع أخويها لولا ما تأخذها به أمها التركية وأبوها الألباني من تكلف الوقار والاحتشام. فهي تجلس اليكم وتسمع منكم وقد تشاركم في الحديث ، وقد يضحكها ما تخوضون فيه ، فإذا ضحكها يضطرب في الحجرة مشرقاً صافياً مضيئاً كأنه البلور. أم صوت أختها أمينة هذه التي نيفت على العشرين ، وجاوزت طور اللعب ، وتزوجت ثم طلقها زوجها فعادت إلى أسرتها كئيباً محزونة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادىء يثير في قلبك وجلا ، وفي نفسك اضطراباً ، وفي أعماق ضميرك قلقاً لا تتبين أصله ، ولا سره ، ولكنك تخافه وتحبه معاً. أي الصوتين آثر عندك وأحب إليك ؟ إني لأخشى أن تكون فاجر النفس ماجن القلب. مسرفاً فيما تتيح لضميرك من حرية. إنك لتحب الصوتين جميعاً ، وتألف الأختين جميعاً ، وتحب أن تنعم ما وسعك النعيم بما تثيران في نفسك من هذه العواطف الحادة المبهمة الغامضة ، وإنك لتسمع لهما إذا تحدثتا أو ضحكتا أو جاءتا بشيء من الحركة فتعى عنهما هذا كله ، وتسجله في نفسك تسجيلا حتى إذا عدت إلى دارك ، وآويت إلى مكانك الذي تعودت أن تعتزل فيه ، أخذت تعيد في نفسك ما سمعت من كلام ، ومن ضحك ، ومن غناء ، وأخذت تتخيل ما أحسست من حركة ، وأخذت تتعمق هذا كله ، وتستخرج منه صوراً ، ومعاني وعواطف وخواطر ، لا تحصى ولا تستقصى ولكنها تنسيك نفسك وأهلك ودارك وتنتهي بك

إلى عالم غريب هو أحب إليك ألف مرة من هذا العالم الذى تعيش فيه . قل الحق ؛ ألست أصور ما تجد ، وأقص ما تحس ، وأحدثك بما تحب أن أتحدث إليك فيه ، ولكنك قد أطلت الجلوس بين عثمان ومحمود ، والاستماع لعزيزة وأمينة ، وهذا صوت المؤذن ينتهى إلينا داعياً إلى صلاة الظهر ، وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير ، ولئن بقينا لندعين إلى الغداء ، وأنا أعرف أن حياءك وأدبك يأبيان عليك أن تستجيب لهذا الدعاء ، وأن نفسك تنازعك إلى البقاء . وما أظن إلا أنك لو أرسلت نفسك على سجيتها لأقمت . ولاحتملت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمتع بعدها بساعات طوال ، تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان . ولكن لا سبيل إلى الإقامة . وماذا نصنع بحيائنا ؟ وماذا نصنع بأدبنا ، وكيف تلقى أمك ؟ وكيف تجيبها ؟ وكيف تثبت للومها العنيف حين تصور لك أن الفتيان الذين يحسن أدبهم لا يبقون فى الزيارة إلى أن يدركهم الغداء ، ولا يستجيبون إلى الطعام ، إذا لم تسبق دعوتهم اليه .

هلم أيها الصديق البائس الحزين ، ودع أمينة وعزيزة ، فقد يتاح لك أن تراهما إذا كان الغد أو إذا كان المساء . فأما الآن فصدقنى ليس لنا فى هذه الدار مقام .

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار ، وأغلق من دوننا الباب ، ورجع عثمان ومحمود أدراجهما فى الحديقة واستقبلنا القناة ، فوقفنا على شاطئها لحظة

مترددين ، أنعود إلى حيث كنا بعد أن تقدم النهار ؟ أم نمضى عن يمين إلى المدينة وإن عرضنا ذلك لشىء غير قليل من اللوم .

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو الخط الحديدى نسعى هادئين . أما الآن فانى أحمد جدك وحزمك وشجاعتك وإصرارك على أن تنصرف حين هممنا بالانصراف ، وإباءك على عثمان ومحمود وإباءك بنوع خاص على عزيزة وأمينة ، وقد كانوا جميعاً يلحون علينا فى أن نبقى ويرغبوننا فى البقاء ، يعرض عثمان ومحمود علينا أن يظهرانا على ما عندهما من أعاجيب القاهرة ، هذه اللعب التى لا تنتشر فى الريف ، ولا يألفها أهل الأقاليم ، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو . وتعرض علينا أمينة القراءة فى بعض القصص ، وأنت مصمم على الانصراف برغم نفسك التى كانت تنازعك إلى البقاء نزاعاً شديداً .

على أنى لا أفهم كلفك بالاستماع لعزيزة وأمينة ، وافتتانك بأحاديثهما هذه التى يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة فى تأنق وتكلف وتعمد للفتنة ، كأنما تريد كل واحدة منهما أن تدل على نفسها ، وتنبهنا إلى أنها ليست منا ، وإلى أننا لسنا منها فى شىء ، إنما هى من هذا العنصر الممتاز الذى لا ينطق الجيم كما ننطقها ، ولا يحول القاف كما نحولها إلى جيم غليظة ، وإنما يحيلها إلى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع فى الأسماع ، ولا يمتلىء فمه بالكلام يهدر به كما تهدر الإبل ، وإنما يضيق به ويتلطف فى إرساله ويجريه هادئاً حلواً رقيقاً ، فيخرجه أحسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن

إلقاء الجنادل والصخور. لا يعجبنى شىء من هذا لأنى أراه تكلفاً وتصنعاً. ومن يدرى! لعلنا إن رأيناهما فى القاهرة، واستمعنا لهما فى بيئتهما الطبيعية أن نجدهما أقل تكلفاً وأدنى إلى الفطرة، ولعلهما يومئذ أن تجدا إلى نفسى الغليظة سبيلا. أما الآن فان قلبى مغلق دونهما إغلاقاً، وإنى لأوثر ألف مرة عليهما فتياتنا الريفيات، وما يمتزن به من حياء حلو وخفر ناعم، وحديث عذب على غلظته، وصوت محبب إلى النفوس على ما يضطرب فيه من بعض الجفاء، ستغضب وستثور وستنكر دوق أشد الإنكار، ولكنى لا أتردد مع ذلك فى أن أعلن إليك أنى أوثر كاملة بنت عالية وأخت غريب، على عزيزتك هذه المتكلفة المتصنعة. وأوثر خديجة بنت محبوبة وأخت علىّ، على أمينتك هذه التى ترى أن ليس على الأرض امرأة تعدلها أو تدانى حظها من الرقة والجمال.

إنى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لا يجتلب، ولا يشترى، وإنما تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس، هذا الحسن الذى تحدث عنه المتنبى. أتذكر بيته؟ إنه مشهور:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

٦

وكأن هذا البيت من شعر المتنبى قد أيقظ صاحبى من نوم عميق، ورده من هيام بعيد، ونبهنى أنا إلى مكانى منه، وإلى مكانه منى. فما

كان لشابين جاهلين من شباب الريف أن يديرا بينهما مثل هذا الحديث، أو يذكرا مثل هذا الشعر. وأين حديث الريف الساذج اليسير الذى لا فلسفة فيه ولا تعمق من هذا الحديث الطويل الذى اندفع فيه صاحبى كأنه السيل لا يرده شىء، والذى أخذ يتكلف فيه ما تكلف، ويصطنع فيه ما اصطنع على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة فى التفكير والتعبير. فلما سمع صوته ينشد هذا البيت ثاب إلى نفسه، وثبت أنا إلى نفسى وإليه، فلبث دقائق صامتاً لا يقول شيئاً كأنما كان يستجمع قواه المفرقة، ويدعو إليه نفسه الشاردة، وينتظر أن يعود إليه عقله وقلبه من مدينتنا تلك فى الريف، فلما استجمع من ذلك كله ما كان يريد قال فى صوت هادىء عميق: أين أنا، وماذا كنت أقول؟ ثم أرسل ضحكته العريضة المخيفة ونهض قائماً وهو يقول: أما إننا قد طعمنا حتى اكتفينا، هذه الصبية البلهاء قد أقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها أن تدعونا إليه، كأنما ظنت الحمقاء أنى رأيتها أو سمعتها أو أحسست مقدمها وكأنها لم تشعر أنا كنا غائبين نسعى فى مدينة من مدن الريف، وهذا خادمك الأحمق قد جلس على كرسيه عند باب الغرفة وهو يغط معنا فى نومه العميق كأن أحاديثنا لم تكن تعجبه ولا تروقه ولا تصل إلى نفسه الغليظة المحجبة بحجب الجهل والجفوة والغفلة. ثم ثاب إلىّ ووضع يده على كتفى وهو يقول: وأنت ماذا أحسست من هذا الحديث؟ ولم يمهلنى، ولم ينتظر منى جواباً، وإنما اندفع يقول: ما أرى إلا أنك ظننت بى الجنون وأخذت تسأل نفسك أين أنت،

وتمقت الساعة التى لقيتك فيها وتلوم نفسك لأنك طاوعتنى واستجبت لدعائى ، وتشفق ألاّ تتاح لك العودة إلى أخيك . ومن يدرى ! لعل المتنبى قد أنقذك حين جرى هذا البيت من شعره على لسانى فردنى إلى نفسى وإليك ، ولعلك إن بقيت تسمع لى وأنا أمضى فى هذا الهذيان ، كنت مضطراً إلى أن تنتهى آخر الأمر إلى الهلع والجزع ثم إلى الاستغاثة والصياح ، ومع ذلك فثب إلى نفسك وامنحنى بعض عنايتك وحدثنى : أليس هذا فناً من الشعر ونحواً من أنحائه ؟ لا تظن أن القدماء من الشعراء كانوا يصنعون شيئاً غير هذا حين كانوا يقفون ويستوقفون على الأطلال والديار ، وحين كانوا يذكرون ويذكّرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها من الأحبة والأخلاء ، وحين كانوا يتبعون الظاعنين ويصفون ما سلكوا من طريق ، وما عرض لهم فى سفرهم من خطوب ، وما أنضوا من إبل وما وردوا من ماء آجن وما انتهوا إليه من مرعى . إنما كانوا يصنعون مثل ما صنعت ويهيمون مثل ما همت ، وينسون أنفسهم كما نسيت نفسى ، ويرسلون قلوبهم كما أرسلت قلبى على جناحى هذا الطائر الخفيف الرشيق الذى يحسن الإسراع ويحسن الإبطاء ويحسن المضى ويحسن الوقوف وهو الذكرى .

وحدثنى أفهمت شيئاً من حنين القدماء على وجهه حين قرأت ما قرأت من شعر امرىء القيس ، وغير امرىء القيس من هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويجيدون تصوير الوفاء . إنما هى عندك ألفاظ تقع فى أذنيك كما يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فإن أعجزك الفهم سألت

كتاباً من كتب اللغة فلا ينبئك إلا بظاهر من معانيها . لا تكاد هذه الألفاظ تتجاوز أذنيك إلى عقلك فضلا عن أن تتجاوزهما إلى قلبك وإلى ضميرك فتثير فيهما عاطفة أو هوى أو ميلا ، وتدعوك إلى أن تقدر الحياة كما ينبغى أن تقدر الحياة . صدقنى أنكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الأدب ، وإنما تدرسون ألفاظاً ومعانى وصوراً ليست من الشعر ولا من الأدب فى شىء .

قلت وقد أعجبنى حديثه وأرضتنى آراؤه ، ولكنى على ذلك ضقت بهذا السيل الذى لا يقف ، وأشفقت من أن يمضى فيه كما مضى فى الذكرى آنفاً ، ومن أن ننفق بقية الليل كما أنفقنا أوله ، وأشفقت بنوع خاص من أن يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عما نحن فى حاجة إليه من التفكير فى العودة إلى بيتى ، فما أشك فى أن غيبتى قد طالت ، وفى أنها ستطول ، وفى أنها ستلاحظ ، وفى أنى سأسأل عنها إذا كان الغد .

قلت ضاحكا : فما يمنعك أن تعلن آراءك هذه إلى الناس فى صحيفة من الصحف ، أو فى محاضرة من المحاضرات ، بل ما يمنعك أن تلقى على الناس دروساً فى الأدب ، فيسمع لك الشباب ، وسينتفعون بما تلقى إليهم من حديث ؟ ثم ما يمنعك أن تمضى معى فى هذا الحديث أثناء العشاء ، وبعده وأثناء الطريق ما دمت قد ضمنت لى أن تصاحبنى إلى بيتى البعيد . قال وهو يضحك ضحكا غليظاً : قل ما يمنعك أن تكف عن هذا اللغو وأن تأخذ فى الجد فقد زعمت لى أننا لم نجتمع هنا لنلغو وإنما اجتمعنا لنجد .

وهذا حق ، فما فى شىء من هذا كنت أريد أن أتحدث إليك ، وما إلى شىء من هذا دعوتك الليلة ، وإنما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد شط بى ودفعنى إلى الاستطراد ، فلنعد إذاً إلى ما كنا نريد أن نأخذ فيه ولنقبل على طعامنا قبل كل شىء .

وأخذنا فى حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يعجل عودتى إلى بيتى ، فقد كان الجد الذى يريده صاحبى أنه يجب أن يكون بينه وبينى تعاون فى الدرس ، يعلمنى بعض ما عنده ، وأعلمه بعض ما عندى . فهو يرى أن أمرى فى الجامعة لايستقيم إلا إذا تعلمت لغة أجنبية وألممت ببعض هذه العلوم التى كنا نجهلها فى الأزهر جهلاً تاماً ، والتى كان جهلنا إياها يخيل إلىّ وإلى أصحابى أننا نسمع من المحاضرين فى الجامعة الأعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم إلا أيسر الأشياء وأهونها .

وهو كان يريد أن يمنحنى من ذلك ما ينقصنى ، لا يسألنى على ذلك أجراً إلا أن أعوده معاشرة كتب الأزهر ، والتصرف فى علم الأزهريين . وكانت علوم ثلاثة من علوم الأزهر تخلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهى المنطق والفقه والأصول . فأما المنطق فقد كان أمره يسيراً ، وكنت أرى أنى أستطيع أن أقرأ معه كتاباً من كتبه المختصرة . وأما الفقه والأصول فقد كان أمرهما أعسر من ذلك وأشق . وأنّى لى أن أعلمه علما لا أحسنه ، وما أظن أنى سأحسنه فى يوم من الأيام ؟ وهو مع ذلك مصمم على أن يدرس المنطق والفقه والأصول وعلى أن يعلمنى الفرنسية ، ويقرأ معى ما أحب

من التاريخ وما أشباه من هذه الكتب التى لا بد من قراءتها لمن يريد أن يعيش فى هذا العصر الحديث عيشة لا غرابة فيها. وكان حوارنا طويلا شاقاً ملتوياً فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد يسفر الصبح. وما كدنا نبلغ حيّنا فى أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن ينبىء الناس بأن « الصلاة خير من النوم »، وكنا لم نتم فعدنا أدراجنا وفى ذلك اليوم جلس معى إلى أستاذ الأصول رجل ليس على رأسه عمامة بل على رأسه طربوش.

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقى فى الجامعة كل يوم إذا كان المساء. وعلى أن نرتب أمرنا بيننا، يعلمنى الفرنسية وأعلمه المنطق. ومن ذلك اليوم لم نفترق حتى أتيح له أن يسبقنى إلى باريس.

كنا نلتقى فى قهوة بشارع كوبرى قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة، فنأخذ فى أحاديث مختلفة، وكثيراً ما كان يشاركنا فى أحاديثنا بعض الطلاب حتى إذا أقبلت ساعة الدرس نهضنا إليه. أما هو فكان ينهض متثاقلا دائما، وأما أنا فكنت أنهض خفيفاً شديد النشاط. وكان يضحك من خفتى. وكنت أضيق بتثاقله، وكان يقول لى هون عليك فَلَيَأْتِيَنَّ يوم تنصرف فيه عن هذه الدروس انصرافاً.

ولم أكن إذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه، ولم يكن ينغص على الاستماع للأستاذ، حتى إذا انتهينا من الاستماع انصرفنا إلى داره أو إلى

قهوتنا فى شارع كوبرى قصر النيل فزعم لى أنه يعلمنى الفرنسية ، وزعمت له أنى أعلمه المنطق ، والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئاً ، وإنما كنا نمضى فى لغو مختلف متصل كهذا الذى صورت بعضه آنفاً ، وكنا ننفق فى هذا اللغو خير أجزاء الليل ، ثم نفترق . فأما هو فكان ينفق بقية الليل فى القراءة أو الكتابة ثم فى نوم قليل ، ثم يصبح فيغدو على ديوانه . وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل فى تفكير طويل مضطرب لا يكاد يذيقنى النوم إلا غراراً ، فاذا دعا المؤذن إلى الصلاة أسرعت إلى الأزهر ، وقضيت وجه النهار مستمعاً للأساتذة أو دارساً مع الطلاب حتى إذا أقبل المساء التقينا كدأبنا فى كل يوم .

وانقضى العام الأول والثانى والثالث من حياتنا فى الجامعة على هذا النحو ، لم يتقدم هو فى درس المنطق ولم أتقدم أنا فى درس الفرنسية ، ولكننا تقدمنا فى إدارة هذه الأحاديث الطويلة المختلفة التى تلم بكل شىء ولا تكاد تتقن شيئاً ، ولكنها تفتح القلوب لألوان من العواطف وتهيىء النفوس لضروب من الخواطر ، وتغير الطريق التى كان كل واحد منا قد رسمها لنفسه فى الحياة .

كان يريد أن ينفق حياته موظفاً يثقف نفسه ثقافة جديدة فى كل يوم ويلتمس لذته فى القراءة والكتابة والحديث . فأصبح أشد الناس بغضاً لديوانه ، وزهداً فى عمله ، ورغبة فى أن يهجر مصر ويعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى ، وتتغير فيها

الحياة من جميع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخاً من شيوخ الأزهر مجدداً فى التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده، أستعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافاً عن الأزهر ، ونفوراً من دروسه وشيوخه ، وحرصاً على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه ، ولم يكن لصاحبى ولا لى إذا التقينا حديث إلا هذه الهجرة وأسبابها وإلا هذه الأحلام العريضة البعيدة التى لا حدّ لها ، والتى تستأثر بنفوس الشباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . وحين تخيل إليهم آمالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ، وإنى لجالس فى بيتى لم أذهب إلى الأزهر ، وما كان أكثر تخلفى عن الأزهر فى هذه الأيام ، وانقطاعى إلى خادمى الأسود الصغير ، يقرأ لى قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصلح معوجها فى نفسى . يقرأ لى مرة فى ديوان من الشعر ، ومرة فى كتاب من كتب التاريخ ، وحيناً فى قصة من قصص العامة . وإنى لجالس ذات يوم إلى خادمى الأسود وهو يقرأ على ديوان البحترى ، وإذا الباب يطرق طرقاً عنيفاً ، وإذا صاحبى يدخل وكأنه العاصفة ، وإذا هو يدعونى فى صوت سريع إلى أن أنهض فألبس ثيابى

وأخرج معه ، وأن أسرع ، فان العربة تنتظرنا . وأحاول أن أسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التى تنتظرنا ، وإلى أين يريد أن يذهب بنا ، ولكنه لا يجيب ، وإنما يستعجلنى ويلح فى الاستعجال ، حتى إذا تركته وذهبت لألبس ثيابى سمعته وهو يذهب ويجيء كالمجنون ، ويتغنى فى صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم أخرج له فيخطفنى خطفاً . ويعدو بى عدواً حتى يلقينى فى العربة إلقاء ، ثم يأمر السائق أن يمضى إلى مكان كذا حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئنى بأن الجامعة قد أعلنت فى الصحف أنها سترسل طلاباً إلى أوربا ، وقد حددت موعد الامتحان وأنه قد أقبل إلى ، لألقى فلاناً وفلاناً ، وكلهم من أعضاء مجلس الجامعة ويجب أن أوصيهم به خيراً . فهو واثق بأنه سيجوز الامتحان على أحسن حال ، ولكنه يخشى أن يغلبه على الفوز بالبعثة أولئك الشبان الذين يتوسط لهم أصحاب الجاه .

وما دمت يا سيدى تعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً من أصحاب الجاه وأعضاء الجامعة فليس لك بد من أن تتحدث إليهم ، ومن أن تتحدث إليهم اليوم ، ومن أن تتحدث إليهم أمامى . لهذا كله تركت عملى ، ولهذا كله استأجرت هذه العربة ، ولهذا كله استعجلتك هذا الاستعجال ، وما هى إلا أسابيع حتى تم لصاحبى ما كان يريد ، وأصبح عضواً فى بعثة الجامعة وأخذ يتهيأ للرحلة الى باريس .

٧

يونيو فى . . . . .

ليتنى لم أسمع لك أيها الصديق ، فقد كنت أوثر أن أرتحل إلى فرنسا دون أن أذهب إلى ريفنا الحزين لأرى أبوى وأسرتى ولأرى قريتنا ، ولأملأ نفسى من هذه المشاهد الجميلة التى نشأت فيها ، وكنت أرى أنى سأجد فى هذه الرحلة القصيرة إلى الريف آلاماً يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شىء . وأنا أكره الوداع وأرى فى السفر كما يقول بعض الشعراء من الفرنج نوعاً من الموت ، ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيراً على علم به ، وانتظار له ، وإشفاق منه . وإنما أوثر أن يفاجئنى مفاجأة ، وأن يختطفنى اختطافاً ، وأن أخرج من الحياة جاهلا بخروجى منها كما أقبلت على الحياة جاهلا بإقبالى عليها .

لقد كنت شديد التردد فى الذهاب إلى الريف ، أحس من نفسى ضعفاً شديداً عن احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتى فى القاهرة بعيداً عنهما إلا كارهين ، فكيف بهما إذا علما أنى لن أقيم فى القاهرة . ولن تكون بينهما و بينى ساعات ، ولكنى سأعبر البحر الملح العريض إلى بلاد نائية لا تحسب المسافة بيننا و بينها بالساعات ، وإنما تحسب بالأيام . لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتى فى القاهرة ،

هذه المدينة التى لا يتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها كما نعيش ، والتى يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح فى وقت واحـد ، والتى يجرى فى شوارعها الترام والتى يكثر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتى يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود إليـه . فكيف بهما حين يعلمان أنى سأقيم فى ذلك البلد البعيد الغريب الذى لا صـلة بينه وبيننا فى لون من ألوان حياتنا المعروفة . والذى لا يعلمان من أمره إلا أنه بلد الفتنة والعبث ، وموطن اللهو والمجون . أليس إليه يقصد السراة وكبار الأغنياء والمترفين من سادات الريف إذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة من الذهب ، فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شىء ، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الأطفال ، وترتاع له نفوس الرجال . لقد كنت أقدر هذا كله حين كنت تجادلنى فى زيارة الريف قبل أن أبرح الأرض ، ولكنك لا زلت تلح على وتذكرنى وتثير فى نفسى من العواطف والذكريات ، حتى استحييت منك ومن أبوى ومن الناس ومن نفسى أيضاً ، ورأيت أنى لا أستطيع أن أفارق مصر ، دون أن أرى هذين الشيخين . فمن يدرى ! لعلى أذهب فلا أعود ، ومن يدرى ! لعلى أعود فلا ألقاهما .

هنالك رحلت إلى الريف وليتنى لم أفعل ، فلم أكن أظن أنى سألقى فى هذا الريف ما لقيت من حزن لاذع وألم ممض ويأس لا صبر معه ولا احتمال له .

لا أصف لك جزع أمي ولا سخط أبي ، فحسبك أن تعلم أن أمي لا تصيب من الطعام إلا ما يقيم الأود ، وهي لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل . وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً وأنها لا تمسك الدموع ، وإنما ترسلها إرسالاً حتى تنقطع ، وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذي كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات . وهي تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا في الجامعة ، وهي تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون إليه ، وهي تلعن المدارس وهذا التمدن الذي علم مصر فتح المدارس ، وهي تأسف أشد الأسف وتندم أقسى الندم كلما ذكرت ذلك اليوم الذي أراد فيه أبي أن يقلد أباك ، فأخرجني من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك ، وأرسلني معهم إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم ، هنالك حيث طرحت زي الريف واتخذت هذا الزي الأوربي ، ووضعت على رأسي هذا الغطاء البغيض .

ولست أخفي عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول ، فهي التي ألقت في روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال في هذه المدارس ، وأن يلبسوا الطربوش ، وأن يلووا ألسنتهم بالرطانة الأجنبية ، وأن يصبحوا موظفين . وهي لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف إلى الكتاب حتى نحفظ القرآن ، ونحسن القراءة والكتابة ، ومن الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصل شيئاً من علوم

الدين . ثم نعود إلى القرية حيث الجد والعمل ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الجاه و بعد الصوت .

لا أطيل عليك فأمى ثائرة إذا أصبحت ، ثائرة إذا أضحت ، ثائرة إذا أقبل المساء ، ثائرة إذا جنها الليل ، ثائرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً و بكاء . فأما أبى فمتنكر متنمر ، ينذر فيلح فى النذير ، ويتلطف فيلح فى التلطف ، فإذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف ، خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعاً ، وجعل حياتهم لا تطاق ، وأقسم جهد أيمانه ليقطعن ما بينه و بينى من سبب وليعيشن منذ الآن كأنى لم أكن له ابناً. ولو أنى استمعت لنفسى أيها الصديق لما أقمت فى هذا الجحيم إلا يوماً أو يومين ، ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذى تقلع فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذى ملك علىّ نفسى كلها وقلبى كله

ولكن كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيما هما فيه ، ولما أبذل ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بعض الشىء ، ولأردهما إلى بعض الطمأنينة ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين . و إنى لأجد فى ذلك ما وسعنى الجد ، وأحتال لذلك ما واتتنى الحيلة ، وأستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم ، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور ، وبما بين حياتنا فى هذا العصر وحياة آبائنا قبل أن نولد أو حين كنا أطفالاً ، وما أظن أنى سأبلغ وحدى أو بمعونة هؤلاء الناس شيئاً ،

فأمى مستيقنة بأنى إن سافرت فقد فقدتنى ، وأبى مقتنع بأنى إن سافرت فقد قطعت بينه وبينى كل سبب .

فى ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كئيب النفس ، شديد الحرج ، ممتلئاً بهذا العجز المؤنس عن رضاء هذين الشيخين ، كارهاً أشد الكره للدار والقرية ومن فيهما ، فخرجت أهيم فى الريف ألتمس راحة النفس فى تعب الجسم ، ولست أزعم أنى خرجت أريد وجهة بعينها ، أو أسعى إلى غاية معروفة ، وإنما هو المشى ، والإبعاد فيه ، والخلوة إلى النفس ، والفرار من لوم اللائمين ، وعذل العاذلين . وإلحاح الملحين . وإنى لأمضى أمامى لا أحفل بشىء ولا أقف عند شىء ، وأكبر الظن أن كثيراً من الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقونى فحيونى ، وما أشك فى أنهم قد أنكرونى لأنى لم أسمع منهم ، ولم أرد عليهم تحيتهم ، ولعل كثيراً منهم قد تحدث إلى نفسه بأن هذا أول الشر ، وبادرة الفساد ، إنه ليعرض عنا ، ويكبر علينا ، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به إذا ذهب إليها وعاد منها .

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم ، ولا أحسست مكانهم منى ، إنما كنت مشغولاً بنفسى عنهم وعن كل شىء . وإنك لتعلم أنى كثيراً ما حدثتك عن كلفى بالخروج إلى الريف . والتروض فى الحقول أثناء هذا الفصل من العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشتد النشاط ، وحين تنتشر فى ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبذلات بحكم الفقر ، يطوّفن بالحقول

ويلتمسن أقواتهن فى التقاط ما يسقط من الحب . إنك لتعلم كلفى بالخروج فى هذا الفصل ، وأنى أجد لذة حارة حادة فى الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعى الذى تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الخمود والجمود . ويفنون فى طبيعتهم هذه ، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج ، لهم جد الأداة وصدقها واستقامتها وصبرها وإعراضها عن الشكوى ، وبعدها عن الملل والسأم . فما رأيك فى أن هذا الجمال الذى يفتننى ويملك على قلبى ويحملنى على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام ، لم يصل إلى قلبى ، ولم ينته إلى نفسى فى هذا اليوم . فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات ، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطاً ومرحاً ويقيناً وثقة وإيماناً . إنما مضيت أمامى لا ألوى على شىء كأنما تدفعنى قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبينها ولم أتنبه لها ، إلا فجأة حين رأيتنى واقفاً جامداً وحين أنكرت من نفسى هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولى كأنى أفقت من نوم عميق . فما يروعنى إلا أن أرانى واقفاً أستظل بشجرات التوت عند الإبراهيمية ، هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن إذاً قد خرجت من دارنا ضيقاً بها وبمن فيها ، ولم أكن إذاً قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها ، ولم أكن إذاً قد همت فى الريف التماساً للخلوة إلى نفسى والراحة مما كنت أجد من عناء ، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت فى الريف أمامى لأنى

لم أكن أجد بداً من أن أزور هذه المدينة التى أنفقت فيها أحسن أيام الصبى، ومن أن ألم بهذه الربوع التى ذقت فيها أطيب ما ذقت فى الحياة من لذة قوية نقية طاهرة بريئة من كل إثم .

إذاً فلتعد إلىّ نفسى النافرة، وليثب إلىّ قلبى الجامح، وليراجعنى هذا العقل المضطرب المشرد، لأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من قوة الحس والعقل والشعور، لأستمتع بالحياة القوية الخصبة فى هذه المدينة الحبيبة إلى نفسى، الكريمة على قلبى، ولآخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع، أجعله زاداً لى فى هذه الرحلة البعيدة التى أنا مقبل عليها، وأجعله ذخراً لى فى هذه الإقامة الطويلة التى سأقيمها فى ذلك البلد الغريب .

لأملأ إذاً عينى مما سأرى، ولأملأ إذاً أذنى مما سأسمع ولأملأ إذاً نفسى وقلبى مما سأجد، وإنى لأنظر فلا أكاد أرى إلا الإبراهيمية تمتد أمامى ويسعى فيها الماء هادئاً حلو السعى، وإلا هؤلاء الناس يسعون متفرقين، منهم المقبل من الغرب يحمل إلى المدينة ما يبعث إليها الريف من العروض، ومنهم الذاهب إلى الغرب يحمل إلى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة . بعضهم راجل، وبعضهم راكب، وقليل منهم يتحدث إلى رفيق، وكثير منهم يغرق فى الصمت كأنما يفكر فيما وراءه أو فيما أمامه . وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد، وامرأة أو فتاة تأتى من حين إلى حين، فتغمس جرتها فى الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة فى هذا الصمت الذى يحجب

نفوس النساء ، ويستر ما يجول فيها من خواطر يود الرجل لو يعرف منها بعض الشيء . وإني لأمد سمعي فلا أسمع إلا هذه الأصوات المختلفة التي تأتيني من هذه الحركات كلها ، وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذي يأتيني من هذه الأطيار وقد استقرت على الغصون . وكأنها وجدت لذة الراحة وأحست رقة النسيم واستمتعت بخفض العيش بين هذه الأوراق النضرة ، فهي تتغنى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة . وإني لأمد نفسي كلها فلا أحس إلا حياة هادئة قوية نقية تأتيني من كل وجه ، من الحركات التي أرى ، ومن الأصوات التي أسمع ، ومن هذا النسيم الخفيف الذي يمسني مساً رفيقاً فيرد إلى النشاط ويحيي في نفسي الأمل ، ويلقي عني كل ثقل ويكاد يهبني جناحين ويكاد يجعلني طائراً بين هذه الطير . ويكاد يرسل صوتي كما أرسل صوتها بالغناء . وأنا أقيم هنا في ظل شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة وأستمتع فيها بالحياة وأذكرك أيها الصديق . ثم أتهيأ للمضي أمامي ولأنقض على المدينة من هذا المنحدر ، فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً ، كما ينقض النسر . وهأنذا أمضي وأقدرها سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة ، قناتنا أتذكرها ؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسايره على الشاطىء الجنوبي حتى إذا بلغت ذلك المنحدر الذي تعرفه ، ودعتها لحظة وانحدرت إلى المدينة لأمر بهذه الأماكن التي كنا نألفها ، بالدكان وببيت أم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضي حتى أبلغ شارعكم ولعلي أقف لحظة عند أوله فأتحدث إلى بمبة . أتذكر بمبة ؟ تلك التي كانت

تسرف فى النوم وتسرف فى الغطيط ويسمع الناس غطيطها فى أكثر ساعات النهار ، وفى كل ساعات الليل ، إذا مروا أمام بيتها الصغير . من يدرى ! لعلى كنت أقف لحظة عند هذا البيت فأعبث بصاحبته وأسألها عن أصناف الجبن الذى تبيعه وجه النهار . ثم ألهو لحظة بابنها الأبله ذى الرأس الغريب ، أتذكره ؟ لقد كنا نسميه أبا الرءوس ، إنه لا يتكلم ولا يسمع ، ولا يكاد يعقل ، من يدرى ! لعلى كنت ألهو به لحظة ثم ألقى فى يده أو يد أمه بعض النقد .

ثم أمضى فى شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التى كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل ، وأقف عند بيتكم فى هذا المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التى كثيراً ما لعبنا فى ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحدائق والحقول . ومن يدرى ! لعلى أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك وأذكر إخوتك ، فكثيراً ما جلسنا عليها وكثيراً ما لعبنا الطاب . ومن يدرى ! لعل الذكرى أن تملأ نفسى وقلبى ، وأن تنسينى نفسها وأن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها ، ولعلى أعتقد أنى قد أقبلت لأزوركم ، ولعلى أطرق الباب وأنتظر أن أسمع من ورائه صوتاً معروفاً مألوفاً يسأل عن الطارق . وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصاً معروفاً مألوفاً يرحب بى ويدعونى إلى الدخول . ثم أنظر فأرى شخصاً لم أعرفه ولم آلفه يسألنى من أنا وماذا أريد ، فأثوب إلى نفسى وأستأنف رحلتى وقد مثلت فصلا من

حياتى الأولى ووجدت فى التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم أستأنف رحلتى فأمضى أمامى نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذى كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضى ساعات على شاطىء القناة أو فى حديقة جرجس افندى عن شمالنا ، أو فى حديقة المعلم عن يميننا . فأرق فى هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها فى طريقى إلى المدينة .

وكنت اقدر هذا كله واقدم لنفسى المتاع بهذا كله وأنا أمضى أمامى ملتمساً مخرج القناة من الإبراهيمية . ولكن ماذا أرى ؟ وأين أنا ؟ وأين القناة ؟ إنى لأنظر فاذا الابراهيمية تمتد وتمتد ويجرى فيها الماء هادئاً يحمل الحياة والخصب ، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام ، فليس فيه عوج وليست فيه فرجة يخرج منها الماء . أين القناة ؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضى غير بعيد ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات . ثم تمضى غير بعيد ونمضى معها فنبلغ هذا المنحدر الذى كان ينتهى بنا إلى المدينة . أين القناة ؟ إنى لا أراها ولا أجد لها أثراً ، وإنما أرى شوارع وأرى دوراً تقوم فى هذه الشوارع ، وأرى معالم لم آلفها ، ومناظر لم أرها من قبل . أترانى أخطأت المدينة ؟ ومع ذلك فأنا أعرفها كما أعرف نفسى ، وأستطيع أن أمشى فيها وأهتدى إلى مسالكها المختلفة دون أن أفتح عينى كما كنت تمشى فيها أنت أيها الصديق لا تحتاج إلى أن ترى ولا إلى من يهديك الطريق . أين القناة ؟ لقد سلكت إلى

المدينة الطريق التى سلكتها ألف مرة ومرة ، فلست أشك فى أنى قد بلغتها و بلغتها هى دون غيرها من المدن ، فماذا أصابها بعدنا ، وأين ذهبت القناة ؟ إنى لأريد أن أسأل فأجد حياء فى نفسى من السؤال ، ولكنى أطيل الوقوف وأطيل النظر عن يمين وشمال ، وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يخيل إلى و إلى من كان يرانى من الناس أنى أبله قد فقدت الصواب . ثم لا أملك نفسى ، و إذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة و إذا أنا أسمع و يا شر ما أسمع . إنى قد بلغت المدينة و إن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد و إن معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا أسمع ! معمل السكر قد هدم ، وماذا بقى إذاً فى المدينة ؟ أو ماذا جئت أرى فى المدينة ! ماتت القناة ، وهدم معمل السكر ! وغيرت المعالم ! وانتقل أكثر من كنا نعرف فى المدينة من الناس .

يا للحزن والأسى ، يا للوعة والحسرة ، يا لليأس والقنوط . أيبلغ العنف بالزمان أن يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس فى أعوام قصار . لقد جد جيل وجيل فى إقامة معمل السكر و إقامة ما حوله من الدور ، بل من القرى . لقد عاش جيل وجيل ، بهذا المعمل ولهذا المعمل . لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة . فكل هذا الجهد ، وكل هذا العناء ، وكل هذه الحياة ، وكل هذه الذكرى ، وكل ما كان على شاطىء القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم ، ومن حب و بغض ، ومن أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع و إخلاص ، كل هذا

(1) Comment le temps peut-il être assez cruel pour effacer en quelques années une si grande part de la vie des hommes !

يذهب فى أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة ، كأن شيئا من هذا لم يكن ، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة فى هذه الأرض من العواطف ، وكأن شفة لم تبتسم لما أنبتته هذه الأرض من مناظر الجمال ، وكأن عيناً لم تبك لما شهدته هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى . يا للحزن اللاذع ، ويا للألم الممض ، ويا لليأس المهلك للنفوس ! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق ، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذى كان ينطلق فيها فرحاً مرحاً هادئاً وادعاً مستبشراً يرسل البشر من حوله جميلا يثير الجمال على جانبيه . مات هذا الإله الشاب فدفن فى مجراه أو طرد هذا الإله الشاب ورد عن مجراه وفنى فى الابراهيمية . فأصبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً ، لا يثير فى نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجرى ألسنتهم بالحديث ، نسيه الناس ، ونسى هو الناس ، بل نسى نفسه أيضاً . إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم فى المعابد ، فاذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً ، فقد هدم معبد هذا الإله الشاب ، وماتت القناة فمات هو أو نفى من الأرض وأصبح حديثاً كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث . أتدرى أين أكتب إليك ؟ إنى أكتب إليك فى مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره ، ولم يتبدل لأن المنفعة لم تأمر بتبديله ، ولأن يد الإنسان لا تكاد تجرأ على أن تمتد إليه . إنى أكتب إليك عند المسجد ، عند بابه البحرى ، أتذكر

هذا الباب هو الذى يدخل منه المترفون الذين لا يحتاجون إلى أن يمروا بالميضأة لأنهم يتوضأون فى بيوتهم ، ولا أن يمروا بالمغطس لأنهم يستحمون فى بيوتهم . أتذكر هذا الباب ؟ إنه ينتهى بك إلى قلب المسجد لا إلى فنائه ولا إلى الصحن المنبسط أمامه . إنك إذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الغنى الذى بناه . أتذكر هذا الباب ؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال ، فأنا أكتب إليك عند هذا الباب وأكتب إليك قائماً لا قاعداً . وأكتب إليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجرى يدى بما تلقيه هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقى .

لقد أطلت ولكنى لم أحدثك إلا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكنى لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر فان ما رأيته لا يستحق الحديث ، وإنما الذى يستحق الحديث هو هذه المعالم التى أقبلت زائراً لها . فلم أر منها عيناً ولا أثراً ، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروى عنها خبراً . هذه المعالم التى جئت لأراها والتى لم أرها ، هى التى تستحق الحديث . لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه . ولن أتمه الآن . فقد آن لى أن أروح إلى قريتنا حيث ينتظرنى الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه ، فما ينبغى أن أحتمل وحدى ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيرى من الذين نشأوا فى المدينة يحزنهم

أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس .

وأكتب إليك الآن من قريتنا وقد بلغتها مع الليل فألهانى ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسى من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت للموت كما لهوت ، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ إليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلا ولا روية وإنما اندفعوا فيه اندفاعا . افتقدونى وجه النهار فلم يجدونى وانتظرونى حتى انتصف النهار ، وهم يظنون أنى قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من النزهة والتماس التروض والعبث فى الحقول . ولكنى لم أعد مع الظهر ، ولم أعد مع العصر ، فلم يشك أحد فى أنى لم أخرج لنزهة ولا لتروض وإنما فررت منهم فراراً ، وعدت إلى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل .

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذى يملؤه السخط والغضب . وتملؤه الرقة والرحمة فى وقت واحد . لقد كنت ابناً عاقا يرتحل دون أن يودع أبويه ، فكنت خليقا أن أثير السخط والغضب والموجدة ، ولكنى كنت ابناً يرتحل إلى بلد نازح ، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان ، وكانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحدر من عينى أمى ، لا يعرف الناس أهى دموع الغيظ والحنق أم هى دموع الوجد والحنين . وكانت غريبة هذه الألفاظ التى كانت تنطلق متصلة على

لسان أبى ، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزنا لأن ابنه قد سافر إلى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود .

ثم كانت غريبة هذه العواطف التى ثارت فى نفسى حين بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيين يظهران السخط ومسرورين يتكلفان الحزن ، ومبتهجين يتصنعان الاكتئاب . فى قلبهما إذاً عطف علىّ . وهذا الغضب الذى أراه وأتأذى له ليس إلا مظهراً من مظاهر هذا العطف ، ولوناً من ألوان هذا الحب ، وصورة من صور هذا الحنان ، وإذاً فسأسافر إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذى سيصحبنى فى هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة . ولعل خروجى إلى المدينة لم يكن شراً كله وإنما كان فيه بعض الخير ، على كثرة ما أثار فى نفسى من الآلام الملحة الباقية ، فلأول مرة عدت إلى القرية استطعت أن أظفر من أبوى بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف ، كأن عودتى إليهما من الرحلة القصيرة التى انقضت قد ألهتهما عن تلك الرحلة الطويلة التى لم تبتدئ بعد . وكان أكثر حديثنا عن المدينة التى زرتها ، وعما تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشيخان يتحدثان إلى فى ذلك كله حديثاً هادئاً مطمئناً يغشاه حزن خفيف وتتردد فيه ذكريات مؤثرة ، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والأمل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت ،

ومتممة فى الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى لهذه الحياة المنقضية ولهذه العهود الماضية ولهذه الذكريات التى ستبقى مابقيت .

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى والذى يجب أن تقيم مثله فى نفسك لذلك العهد الذى مضى إلى غير رجعة ومات إلى غير نشور . ولا بد من أن أتم لك ما تم فى نفسى من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذى ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التى تألف الظلمة فى البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شىء مما كنت تعرفه وتألفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل شىء . فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتمسها فى نفسك واجتهد إن اسطعت أن تستحضر ما بقى من صورتها وأن تثبته ، فإنى أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالأصل . وأما بيتكم فلن تراه إلا فى الخيال يقظان أو فى الحلم نائماً . وكذلك هذه البيوت الحسان التى كانت تقوم على شاطىء القناة والتى كنت تحب أن تدخل بعضها لتتحدث إلى محمود وعثمان ، ولتسمع لعزيزة وأمينة . وقد مضى أهلك إلى أقصى الصعيد ، وهبط أهل عزيزة وأمينة إلى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم إن شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون فى بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسنين قد انتقل إلى السودان بعد أن عصف الموت ببيته فأذوى منه غصوناً وأذبل زهرات . ولكنك تجهل أن

« حسن كوزو » قد رحل إلى عزبة « المكسرين » وأنت لا تعرف عزبة « المكسرين » ، فهى قطعة من الأرض منحتها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا عن العمل . فهم يقضون فيها ما بقى لهم من حياة .

فأما سيدنا فقد ارتحل إلى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذى لم يكن يعرف السكون . واستأنفت زوجه الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذى كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر . وفقدت عالية أم غريب زوجها الضرير ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا يعلم أحد . وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة ، ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته . ولقيت زنوبة من دهرها شراً ونكراً . فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سراً ، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة . ثم مضى الدهر فى تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها ، وعاشت أعواماً لا ترى النور ، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذى لا يكمل الصفو فيه .

أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت ؟ فقد هدم الكتّاب هدماً ، وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس .

نعم هدم الكتاب هدماً ، وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر ، ترك فى نفسى من الآثار المؤلمة والندوب التى ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم . فما تزال معالم الكتاب باقية ، على

نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتّاب الآن طلل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من آثاره إلى الآن بقية مؤذية حقاً . لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه ، ونزع منها ذلك الخط الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والرمل والحصى إذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤذى المدينة فى كل عام .

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن يمين الكتاب وشماله . وعملت معاول الهدم فى الكتاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور ، فالمنظرة التى كانت تقوم أمام الكتاب والتى كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب ، وأصبحت طللا مثله . والبيت الذى كان يقوم وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب وانتثرت هذه الأطلال فى هذا الفضاء انتثاراً محزناً موئساً ، ولكن مكان الكتاب بينها يثير فى النفوس أسى غريباً ولوعة محرقة حقاً . إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التى كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرءوا الحزب ، وإن عتبته ما زالت قائمة ولم تمح جدرانه كلها محواً ، وإنما بقى منها شىء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع أن تتبين مواضع المقاعد الخشبية التى كانت مسندة إلى هذه الجدران والتى كان يجلس سيدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن

شمالك إذا دخلت ، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر ، ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل إلى قش لا يكاد يتصل ، وحين يجود بعض الأغنياء بما يقوم مقامها .

قل ما شئت واعجب بالشعر القديم ما أحببت واحفظ من وقوف الشعراء على الأطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للظاعنين ما استطعت أن تحفظ ، فسيظل هذا كله فى نفسك كلاماً أجوف لا يحتوى شيئاً ولا يدل على شىء ، حتى تقف موقفاً كالذى وقفته منذ حين بين هـذه الأطلال عن يمين وشمال ، وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة القوية الغنية الخصبة التى كانت تملؤها الحركة والنشاط ، وتضطرب فيها الأمانى والآمال ، وتختصر جيلا مضى وتنبىء عن جيل مقبل ، فذهبت هباء وتفرقت فى الأرض ، ولم يبق منها فى هذا المكان إلا صدى لا يحسه الناس جميعاً ، ولا يقدرون وجوده ، وإنما يحسه مثلك ومثلى من الذين اشتركوا فى هذه الحياة وتأثروا بها وملأوا من صورها النفوس والقلوب . لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجعلت أنظر حولى فلا أرى إلا هذه الأحجار المتناثرة وأمد أذنى فلا أسمع إلا هذا الصدى الذى كان يضطرب فى الفضاء ، ولكنى مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعاً ، وقد أخذوا مجالسهم فى الكتاب ، هذا يقرأ ، وهذا يسمع ، وهذا يلغو ، وهذا يكتب ، وهذا يلعب ، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد فيه هذا اللغط الذى كان يسمع من مكان

بعيد فيدل سامعه على مكان الكتاب ، ولولا أنى مازلت محتفظاً ببقية من إرادة ، وفضل من القدرة على ضبط النفس لجننت ولتحدثت إلى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم يجرون و يلعبون ، ولشاركتهم فى الجرى واللعب . لا أخفى عليك أنى ملكت نفسى فلم يذهب بها الجنون ، ولكنى لم أملك عينى ، ففاضت منهما الدموع . هممت أن أمضى ولكنى لم أسلك الطريق العامة حيث كان يمتد الخط الحديدى ، وإنما هممت أن أمضى نحو بيت المأمور ، فما راعنى إلا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب و بيت نوح ،و إذا هما قائمتان كعهدهما تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل ، وتحملان ما تعودتا حمله من التمر الذى لم يتم نضجه بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه فنعبث به ، ثم كنا نلتقطه فنأكله إذا قارب النضج ، ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه إذا تم نضجه ، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الأطلال المتهدمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان من بهجة ، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما تجدان الوحشة فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات بعد حياة .

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنى قضيت مثلها ، ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكرى وألم الحسرة ما لا أعرف أنى ذقت مثله قط . وإنى لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حباً ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم فى

الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد إلى نخلتى حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء ! . لقد أجهدت نفسك فى البحث ، ولقد كنت تعجب بشعر مطيع فى هاتين النخلتين ، ولقد كتبت كلاما كثيراً عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ، ولقد كنت راضياً عن نفسك لأن الأستاذ كان راضياً عنك ، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع فى نفسك من أثر ، وماذا بعثتا فى قلبك من عاطفة ؟ إنما هو كلام يروى ثم يثير فى أنفسكم العجب والتيه والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق . أسرع أيها الصديق إلى مدينتنا فألم بها يوماً أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب محواً ، وقبل أن تجتث النخلتان اجتثاثا ، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة ، على هذه القبور العزيزة التى دفنا فيها الصبى ، وما كان يملؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط . أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر مطيع ، فستفهمه وستتذوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر به مطيع نفسه .

ليت الأيام تتيح لى أن أحقق أمنية تضطرب فى نفسى فأجمع نفراً من رفاقنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ماحوله من الأطلال وإلى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحيى عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة .

لست أدرى أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به ، وتشفق من طوله ، وتكره أن تنفق فى قراءته من وقتك ما أنت فى حاجة إليه ، لتستعد

لدرس من الدروس ، أو لتقرأ فى كتاب من الكتب ، أو لتحفظ من بعض الدواوين ، ولكنى لم أكن أستطيع أن أكتب إليك أقصر مما كتبت ، ولولا إشفاقى عليك ورثائى لك لكتبت إليك أطول مما كتبت ، فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شىء ساكن من حولى إلا هذه الأصوات التى تبلغنى من حين إلى حين ، أصوات الخفراء حين يتنادون أو أصوات الديكة ، فتحسب أن الفجر قد لاح ، فتصدح بندائها العذب لتلقاه بالتحية ولتنبىء الناس بمطلعه . ثم تعلم بعد ذلك أنها قد خدعت ، أو هى لا تعلم شيئاً وإنما يمضى بها النوم فى أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود إلى الصمت وتغرق فيه . ولعلى أجرد نفسى من خواطرها ، وأسلها مما حولها سلاً ، وأعلقها فى هذا السكون تعليقاً ، فأسمع أصداء تتردد ويدعو بعضها بعضاً ويجيب بعضها بعضاً ، وتصور لى ذلك الصدى الذى كنت أسمعه فى الكتاب ثم أريد أن أحلل هذه الأصداء وأردها إلى أصولها ، وأتخذ لها أشخاصاً أحياء ، فيخيل إلىّ أنها نفوس الأجيال التى سكنت قريتنا على اتصال الزمن ، ويخيل إلىّ أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هى وحدها التى تزول ، وهى وحدها التى تتغير ، وهى وحدها التى تبرح الأرض . فأما نفوس الناس والحيوان والأشياء فمتصلة بالأرض لا تبرحها ، مضطربة فى الجو لا تفارقه ولا تزول عنه ، وإنما هى تملؤه حياة لا يشعر بها الأحياء إلا إذا سلوا أنفسهم من المادة سلا ، وعلقوها فى سكون الليل تعليقاً . لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه ، ولقد سكن من حولى كل شىء ، وأنا لا أسمع دعوة النوم

ولا أحس مقدمه ، ولا أرغب فيه ، وإنما أنا حريص كل الحرص على أن أبقى مع هذه الذكريات أتحدث اليها . وأسمع منها حين أتخذها موضوعاً لما أحمل هذا الكتاب إليك من حديث ، وما أظن أن الفجر سيلقانى نائماً بل أنا واثق بأنه سيلقانى يقظان ، ولولا أن يراع أهل الدار وأن تظن بى الظنون لخرجت لاستقباله فى الفضاء فأنا أكره أن يدخل علىّ نوره من النافذة ، كأنه اللص ، وأحب أن ألقاه فى الفضاء الطلق ، فأملأ به نفسى وقلبى ، وألتمس فى ضوئه الهادىء الحلو هدوءاً لهذه الثورة التى لا أستطيع أن أكبح جماحها ، ولا أن أنتهى بها إلى السكون .

يا للحزن ويا للأسى ! يا للوعة ويا للحسرة ! ويا لليأس ويا للقنوط ! لقد أقبلت على الريف وكنت أظن أنى سأملأ عينى وأذنى ونفسى وقلبى بما أحببت وبما ألفت ، وأنى سأحمل هذا كله إلى حيث أريد أن أقيم وراء البحر ، فلم أجد شيئاً وهأنذا سأعود إليك بعد أيام . ثم أرحل إلى مصر بعد أسابيع لا أحمل فى نفسى إلا أطلالا متهدمة ، ونخلتين قائمتين صامتتين تجدان الوحشة ، وتبعثانها من حولهما ، ما أكثر ما كنت أريد وما أقل ما وجدت وما أكثر ما يعبث بنا من الآمال .

تقبل تحية صديقك اليائس » .

***

وأنا أعترف أنى تلقيت هذا الذى هو أشبه بالسِّفر منه بالرسالة فى شىء من الخوف والإشفاق من طوله ، ولكنى تعودت من صديقى طول الحديث

واختلافه وكثرة الافتنان فيه ، فأبقيته يوماً كاملا لم أقرأه ، ولم أعرف ما فيه حتى فرغت له آخر النهار فقرأته ، ولكنى لم أحس له من الأثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته فى هذه الأيام . وكأن الأمد بين صديق و بينى كان بعيداً أشد البعد ، فقد كنت أقدر الذكرى وآنس اليها وأحب التحدث عن العهود القديمة ، ولكنى لم أكن أكلف بهذه العهود ولا أحفل ولا آسى عليها .

ولعلى كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخراً غير قليل ، فقد كنت مفتونا بحياتى فى القاهرة راضياً عما كنت أتلقاه كل يوم من جديد الأمر ، مبتهجاً بما كانت تتفتح له نفسى كل ساعة من العلم . وكان هذا النشاط العقلى يبهرنى ، ويسحرنى ويدفعنى إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن يكون سكراً متصلا . وكان تذكر العهود القديمة يؤذينى لأنه يخرجنى من هذه الحياة اللذيذة بعض الشىء ، ويردنى إلى تلك الحياة التى طالما ضقت بها أيام كنت صبياً ناشئاً فى الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ، ولم أحفل بالخط الحديدى ولا بانتزاعه ، ولم أكترث للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطراً . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد فى الكتاب ولا فى النخلتين شعراً ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة ولا عن الخط الحديدى ، ولا عن معمل السكر . والله عز وجل قادر على أن يغفر لى الخطيئة ويعفو لى عن الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديق من موت سيدنا بشىء من الابتسام وهز الكتفين .

أما الآن فأراني مع صديقي متلمساً أصل القناة باحثاً عما ألفنا من الأحياء والأشياء ، حزيناً ملتاعاً بل يائساً قانطاً ، أما الآن فاني أقرأ هذا الكتاب فأسأل نفسي : أين ذهب الكتاب والنخلتان ؟ وما ذا قام فى ذلك المكان، الذى قضينا فيه شطراً من حياتنا لعله خير ما أتيح لنا أن نحيا .

٨

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

ألقى هذا البيت بصوته الغليظ ومد قافيته مداً طويلا . وهو يضرب الأرض بعصاه ، ويلقى طربوشه على مائدة كانت أمامى ثم جلس لم يبدأنى بتحية ، ولم ينتظر أن أردها عليه ، وكأنه اعتقد أن هذا البيت الذى ألقاه على هذا النحو خير تحية يمكنه أن يهديها إلى ، وأن دهشى لمقدمه ، وانتظارى لتفسير هذا البيت ، والإبانة عما أراد به ، خير رد عليه . وأكبر الظن أنه لم يكن يرى التحية والرد عليها إلا لوناً من تنبيه القادم إلى مقدمه وتنبه المقيم إلى أن أحداً قد أقبل عليه ، وما دام هو قد بلغ من ذلك ما كان يريد فليس عليه بأس من أن يسند عصاه و يتخفف من طربوشه و يجلس إلى المائدة التى كنت أجلس إليها مالئاً الجو بضحكه العريض كما تعود أن يفعل كلما أتى شيئاً غريباً . ثم يرفع صوته بهذه الجملة التى يمتلىء بها بيتنا الصغير كله « هات الشاى ياغلام » .

ثم يستريح قليلا من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من

حيث انتهى ، وهو إنما انتهى عند إنشاد البيت ، فيقول : والأسنة هنا يا سيدى هى هذه الزيارات التى سننفق فيها آخر النهار ، وأول الليل ، حتى إذا ملأنا آذاننا من لغو الناس ، وملأنا آذانهم من لغونا . وقلنا ما لا نعتقد ، وسمعنا من الناس ما لا يعتقدون ، وشبع بعضنا من الكذب على بعض ، انصرفنا إلى خلوتنا تلك فى أعلى الربوة ففرغنا لجدنا الذى خلقنا له ، وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل ، وأظن أنك لن تمانعنى فى أن نبدأ زياراتنا بشيخك الأديب ، فإنى قد أحببته منذ عرفته ، ولست أدرى أيحبنى أم يبغضنى ، ولكن ذلك لا يعنينى فحسبى أنى أحبه ، وأنى أريد أن أراه وأن أستمع إليه ، وأنى أريد أن يكون ذلك فى هذا المساء ، لأنى سأشغل منذ غد بما يصرفنى عن الزيارات . والخير أن توطن نفسك على أنك ستخرج معى الآن فلا تعود إلى بيتك إلا إذا أسفر الصبح ، وغمرت الشمس مدينة القاهرة بضوئها الحار المحرق ، وإن لم يرتفع النهار . وما أحب أن تجادلنى فى ذلك أو أن تنكره علىّ ، أو أن تتعلل بهذه التعلات التى لا تغنى فإنى مصمم على أن يتم ما أريد مهما تكن المصاعب ، ومهما تخترع من التعلات . ولولا أنى نهضت وأتيت حركة الذى يريد أن ينصرف و يترك له الغرفة وما فيها لما انقطع هذا السيل المندفع عن التدفق ، ولما كف هذا الغيث المنصب عن الانهمار . ولكنه رآنى قائماً أتحول إلى باب الغرفة وقد رفعت يدى كأنما أريد أن أضعهما على أذنى ، فأغرق فى الضحك ، ثم ردنى إلى مكانى وهو

يقول : «لك ما تريد فسأبلغك ريقك ، فقد يخيل إلىّ أنى منذ أقبلت لم أرحك ، ولم أرح نفسى من الكلام ، ولكن لا تلمنى فى هذا ولم غلامك هذا الأسود الصغير ، فلو أنه أسرع بالشاى وشغلنى به و ببعض ما يصحبه من الطعام ، لانصرفت إليه بعض الشىء عن هذا الكلام المتصل»

ثم صمت متكرها وتعجلت خادمى نجاءه بما كان يريد ، واستطعت أن أتحدث إليه ، وأن أسمع منه كما يتحدث بعض الناس إلى بعض فى هدوء واطمئنان وشىء من الرزانة والتفكير .

ولم أشك مع ذلك فى أنه كان مضطرب النفس ، شديد الاضطراب مدفوع القلب إلى ثورة عنيفة لا يعرف منها مخرجا ولا ينتهى منها إلى قرار . فقد أخذت أتعلل عليه وأظهر كراهة الخروج ، ثم أقيم الدليل إثر الدليل على أنى إن خرجت فلا بد من أن أسرع إلى العودة لأنى لا أستطيع السهر فى هذه الليلة . كان كلما سمع منى تعلة محاها محواً ، وكلما سمع منى دليلا نقضه نقضاً ، حتى إذا أعياه ذلك وضاق بهذا التمنع الطويل ، نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع إلى الغرفة التى كان أخى قد خلا فيها إلى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعاً ، ولم يكد يجد أخى حتى أنبأه بأنه سيصطحبنى فى بعض الزيارات ثم سيقضى معى أكثر الليل أو كله فى حديث طويل ذى بال ، وخيره ضاحكا صاخبا بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا فى هذه الغرفة أمام غرفته أو هناك فى بيته البعيد على تلك الربوة مما يلى القلعة .

وكان أخى أشد الناس ضيقا بالناس ، وأكثرهم نفوراً من الزيارة والزائرين ، وأشدهم بغضاً لهذا النوع من الحديث الطويل ذى البال ، الذى يظن أصحابه أن له خطراً ، وإنما هو وسيلة من وسائل قتل الوقت ، والانصراف عما ينبغى للطالب الجاد من درس وتحصيل . فلم يكد يسمع حديث صاحبى حتى أجابه متعجلا أن أخرجه معك متى شئت وأعده متى أحببت ، فلست أطلب إليك ولا إليه إلا أن تريحانى من لغوكما الذى لا حد له ، فأخى يعلم ، ولعلك تعلم أيضاً ، أنى غارق فى الاستعداد للامتحان .

قال ذلك وأعرض عنه إلى كتبه فعاد إلىّ جذلان مبتهجاً وهو يقول : لم تبق لك حجة وإنما أنت منذ الآن ملك لى ، فلا بد مما ليس منه بد .

ولم يكن بد من أن أذعن له ، وأنزل على حكمه وأطوف معه فى بعض أحياء القاهرة نزور هذا لماماً ونزور ذاك فنطيل عنده الإقامة ، وهو فى أثناء هذه الزيارات وفى أثناء الطريق التى كنا نقطعها من بيت إلى بيت ، مندفع فى مزاح لا ينقطع بصوت مرتفع كثيراً ما كان يلفت إلينا الناس ، وكثيراً ما كان يحملنى على أن ألح عليه فى أن يخفض منه بعض الشىء وعلى أن أقسم له أنى لست أصم وأنى أسمع همسه فضلا عن حديثه المعتدل . وأن أحتج له على أن الناس ليسوا فى حاجة ولسنا نحن فى حاجة إلى أن يشاركونا فيما نأخذ فيه من عبث وجد . وكثيراً ما اضطر أصدقاؤنا الذين زرناهم إلى أن يظهروا الضيق بصوته المرتفع الذى لا يخفى شيئاً ، ولا سيما هذا المزاح الغليظ المسرف فى الحرية الذى يرتفع به صوته حتى يخشى أصحاب الدور أن يبلغ النوافذ وأن ينتهى إلى آذان لا ينبغى أن ينتهى إليها .

ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتي له هذا المساء، لذيذة حقاً متعبة حقاً، كانت لذيذة لهذه الفنون المختلفة التي كان يطرقها فى أحاديثه المتصلة، ينتقل من بعضها إلى بعض فى غير تمهيد، ولا تنبيه ولا مناسبة، وإنما هو الاستطراد، والاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت، ولا كما أفهمه أنا، معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التي تدعو الى الشرح والتفسير، وتبيح الانتقال من موضوع إلى موضوع، وإنما هي مناسبات خفية كان يجدها هو ولم نكن نجدها نحن. فكان استطراده من موضوع إلى موضوع، أشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطىء القناة إلى شاطئها الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبه الجسر. وكنا نجد فى استطراده هذا ما يلهى ويضحك ويعجب، وكنا نقدر دائماً أنه إذا وثب من موضوع الى موضوع أو قفز من حديث الى حديث، فلن يعود الى الموضوع الذى وثب منه ولا إلى الحديث الذى تجاوزه، ولكنه كان يقهرنا دائماً فلا ينسيه موضوع موضوعاً ولا يشغله حديث عن حديث، ومن أجل هذا استحالت اللذة التي كنا نجدها فى الاستماع له إلى تعب مضن للعقل، منهك للقوى. ويكفى أن تتصور رجلاً يسير بك أو يعدو بك فى طريق ثم لا يلبث أن يعدل بك إلى طريق أخرى ثم لا يلبث أن يردك الى الطريق الأولى فيعدل بك الى طريق ثالثة، وهو يمضى فى ذلك جاهداً متصل الجهد، لا يريح ولا يستريح. فأنت واجد فى هذا لذة، وأنت مستقبله بالنشاط والمرح، ولكنك لا تلبث أن يدركك الإعياء والسأم وأنت

تتمنى على صاحبك أن يعفيك من هذا الاضطراب أو يمضى بك على صراط مستقيم .

وكم تمنينا وكم ألححنا فى التمنى ، ولكن عقل صاحبي كان قد ركب على هذا النحو ، فلم يكن يستطيع أن يمضى فى تفكير أو روية أو حديث دون أن ينحرف يميناً أو شمالاً ثم يعود إلى طريقه الأولى ليعود الى الانحراف عنها . ومن يدرى ! لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق أو الأمور المعقولة التى تعمل فيها عقول النـاس لا تستقيم ولا تسمح بأن يستقيم التفكير فيهـا ، وإنما هى تنحرف وتعوج وتلتوى وتكره العقول على أن تسايرها فى الانحراف والاعوجاج والالتواء ، ولعل عقولنا نحن أوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الأداة ، فهى ترى الأشياء سهلة ميسرة ، وتسلك فى التفكير طرقاً معتدلة مستقيمة وتتعب من الانحراف والالتواء ، أى من التفكير الصحيح . ومهما يكن من شىء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبي إذا فكر أو كتب أو تحدث . فإذا أضفت إلى هذا صوته الذى لم يكن يعرف الخفوت ولا يحب الهمس ، وإذا أضفت إلى هذا أنه صمم فى هذا المساء على ألا نركب عربة ولا نتخذ تراماً ولا نستعين بأداة من أدوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لأنه قد أزمع أن نجن فى هذا المساء . وكان الجنون عنده أن نهيم فى الأرض حتى إذا أجهدنا المشى ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى ينتهى بنا الإعياء إلى أقصاه . أقول إذا لاحظت هذا كله ، وأضفت بعضه

إلى بعض لم تشك فى أنى كنت متعباً مكدوداً حين بلغنا منزله فى أعلى الربوة مما يلى القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جدال فى أنى لو ملكت يدى ونفسى كما يقول الفرزدق لتخلفت عن مرافقته ، ولتركته فى بعض الطريق ، ولكنه قد احتاط لذلك عامداً أو غير عامد ، فأبى علىّ أن أصطحب غلامى الأسود الصغير ، وقال أرفق به ودعه يسترح ، ولعل أخاك أن يحتاج إليه . وما دمت ستنفق الليل معى ، وما دمت سأردك إلى بيتك مع الضحى فلسنا فى حاجة إلى رقيب يسمع ما نقول ، أو يحصى ما نهذى به ، وقد لا نكون فى حاجة إلى أن نسمع غطيطه حين يطول عليه حديثنا ، ويثقل عليه سهرنا فيأخذه نومه العميق ، ويهوى به عن كرسيه إلى الأرض كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار فى بعض قضايا المنطق التى كنت تراها واضحة كل الوضوح ، وكنت أراها أنا غامضة كل الغموض .

واستطاع على هذا النحو أن يخرجنى من غير خادمى ، وأن يحتكم فى أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد . حتى إذا انتهى بى إلى داره نحو منتصف الليل كنت محطما أو كالمحطم ، وكنت لا أتمنى إلا مجلساً أستريح إليه من هذا العناء ، وكنت واثقاً أنى لن أبلغ غرفته الحرام ولن أجلس على ذلك المجلس من الخشب تغطيه الوسائد . حتى أنثنى على أحد جنبى وأستسلم للنوم .

ولكنه لم يمكنى حتى من هذا ، فما كاد بابه يفتح لنا ، وما كادت خادمته تهدينا بمصباحها الضئيل إلى غرفته الحرام حتى أقبلت بما عندها ،

وليتها لم تفعل . فقد أقبلت بإبريق الشاى ومن حوله قطع من فطير الريف . وأقبل هو على الشاى يصبه فى الأكواب وهو يقول فى صوت ماكر : «هذا هو الشاى الذى تعتمدون عليه فى إنفاق الليالى البيض حين يطلب إليكم الدرس ألا تناموا . والدرس يا سيدى يطلب إلينا فى هذه الليلة ألا ننام ، فاشرب من هذا الشاى واستعن عليه بهذا الفطير حتى إذا أخذت من الراحة والغذاء والرى بنصيب أخذنا فى درسنا المعضل العويص .

وقد كنت متعباً مكدوداً ولكنى كنت جائعاً ظمآن أيضاً . فلم أجد قدرة على الامتناع عن أخذ ما كان يقدم إلىّ من طعامه الثقيل ، وشرابه الذائد للنوم . وأقبل هو على ما حملت الفتاة ، فأصاب منه فى غير رفق ولا اقتصاد ، حتى إذا أحس أن معدته قد استقرت فى جوفه ، وأن أعصابه قد تنبهت بعد الخمود ، أخذ فى حديثه الذى كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التى كانت تلتوى بنا وتحملنا ألوان العناء منذ العصر . وكان انتهاؤه إلى الأخذ فى هذا الحديث بعد الجهد الذى لقينا ، والمشقة التى احتملنا ساعات متصلة ، أشبه شىء بخلاص الأم بعد أن ثقل عليها الوضع ، وابتلاها بالآلام المضنية المنهكة . وكان صوته وهو يأخذ فى هذا الحديث هادئاً يحاول الرقة وتجرى فيه عذوبة مؤلمة بعض الشىء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض أو يدخل فيه . قال : «أتعلم فيم أرقتك الليلة وكلفتك ما كلفتك من هذه الأهوال التى لم تكن تنتظرها ولا تحب أن تلقاها ؟ قلت : لا وإنى لأنتظر أن أعلم ذلك منذ عزمت علىّ فى الخروج

معك ، ولو أنك استمعت لى وأردت بى الراحة ، لألقيت إلى حديثك منذ خرجنا ولأرحت نفسك وأرحتنى من هذا العناء الطويل . قال : لم يكن ذلك يستقيم يا سيدى فلكل شىء موعده وإبانه . وهذا الحديث لا يصلح له إلا الليل إذا تقدم وتجاوز نصفه وغمر كل شىء بهدوئه العميق . على أن جهدك لن يذهب عبثاً ، فإنى أعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجد فى حل المشكلات لذة ، فإليك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت أن تواجه مسائل المنطق والفلسفة والأصول . أيهما أهون أن يحتمل : الظلم أم الكذب ؟ ولست أخفى عليك أيها القارئ أنى وجمت حين سمعت هذه المسألة ، ولم أستطع أن أسرع إلى الإجابة عليها . وظن هو أنى أفكر فأمهلنى لحظة ثم سألنى عن رأيى فقلت : لا أدرى لأنى لا أفهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح ، والخير للرجل الكريم الفاضل أن يتجنبهما معاً . قال : فإن لم يكن له بد من أحدهما . قلت : دعنى من الأمور العامة ، وألق إلى حديثك فى صراحة ووضوح فلعلى أفهم عنك ولعلى أستطيع أن أرد عليك . قال فى ضحك هادئ : يظهر أنك فاتر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولأنبئك قبل كل شىء بأنى إنما أرقت وأرقتك معى هذه الليلة لأنى سأصبح بطلا قبل أن ينتصف نهار الغد . وأنا لا أريد أن أنتظر البطولة نائماً ولا غافلا ، وإنما أريد أن أنتظرها يقظان ، وأن آخذ لها أهبتها وأستعد لها كما يستعد الناس لعظام الأمور . وأنا أعلم أنك ضيق بى وبهذا الكلام الذى لا ينقضى

والذى لا يفصح عن معناه ، ولكنى أقسم لك جاهداً أنى لا أمزح ولا أهذى ولا أريد العبث ، وإنما أسوق إليك حديثاً كله حق وصدق وصواب . فلن ينتصف نهار الغد حتى أكون قد بدأت بطولتى وأقدمت على عمل ذى بال . ولست أزعم أنى سأكون بطلا من طراز الاسكندر أو قيصر ، ولكنى سأكون بطلا على كل حال ، سأكون بطلا لقصة من القصص لتكن تمثيلا أو لتكن قصصاً مرسلا ، ولكنى سأكتب الصفحة الأولى منها قبل أن ينتصف النهار غداً .

وكان يمضى فى حديثه هذا مستأنياً مستثبتاً حتى أخذت أسأل نفسى أمجنون هو ، ولكنه أسرع فردنى إلى شىء من الاطمئنان . قال : أتعرف أن نظام الجامعة يقضى على أعضائها ألا يتزوجوا حتى يعودوا من أوربا ؟ قلت : نعم . قال : ألم يخطر لك أن هذه القاعدة قد تؤذينى وتضطرنى إلى بعض الحرج ؟ قلت : وما أنت وهذه القاعدة . قال فأنت تجهل إذاً أننى زوج . وهنا ظهر علىّ دهش صادق لأنى كنت أجهل أن لصاحبى زوجاً ، وما كان يخطر لى أن امرأة تستطيع أن تحتمل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت أستطيع أن أتصوره إلا رجلا مضطرب الحياة ظاهر اضطراب التفكير ، ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره إلى هذا الاضطراب ، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت أرى أنه يقضى نهاره كما رأيته يقضيه يعمل فى ديوانه قليلا ويلغو مع الناس كثيراً . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الإنتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم .

فلما رأى ما ظهر علىّ من الدهش والإنكار أغرق فى الضحك . وقال: « لقد كنت تظننى طالباً مثلك أحيا حياة الطلاب، ولكنك تعلم أنى موظف وأن لى بيتاً كبيراً وأنى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم يخطر لك أنى لم أكن أستطيع أن أستكمل ما ينبغى لمثلى من الحياة إلا إذا اتخذت لى زوجاً . مهما يكن من شىء ياسيدى فأنا متزوج وقد ظفرت بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من أن أمضى العقد إذا كان النهار ، ومن أصول هذا العقد ألا أكون متزوجاً ، وألا أتزوج حتى أعود . فأنا إذاً مضطر إلى إحدى اثنتين . إما أن أكذب على الجامعة وأتورط فى التزوير وأتعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير من الشر إن ظهر أمرهما . وإما أن أظلم امرأتى فأطلقها ، فماذا ترى ؟ وكيف المخرج من هذه المشكلة ؟ وأحب أن تعترف قبل كل شىء بأنها مشكلة معضلة حقاً ، وبأنها خليقة أن تكلفك ما كلفتك من الجهد ، وتحملك ما حملتك من العناء ، وتؤرقك مع صديقك ليلة كاملة » . قلت فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل هذه المشكلة العنيفة بما ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والأناة . قال : « فإنى أنفقت وقتاً غير قصير فى الروية والأناة ، وأنفقت جهداً غير يسير فى التماس الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما أملك من الوقت ، وقد انتهى ما كنت أملك من الجهد ، ومن أجل هذا دعوتك لأستعين بك على الخروج من هذا الحرج الذى لا أدرى كيف يكون الخروج منه ، إن من اليسير أن أزعم للجامعة إذا كان الصباح أنى أعزب وأن أرسل امرأتى إلى

الريف لتقيم فيه حتى أعود اليها إن أتيحت لى العودة . وما أظن أن هذا الكذب سيظهر ، وما أحسب أنه إن ظهر استتبع عواقب ذات خطر ، فماذا يعنى الجامعة من أمرى إن عرفت أنى متزوج وأنى قد كذبت عليها ما دمت لا أصطحب زوجى إلى حيث يجب أن أفرغ للدرس ، وما دمت سأجعل بينها و بينى هذه الآماد البعيدة فى البر والبحر . وقد يكون هذا الكذب مرذولاً ، وقد يكون منافياً لأخلاق الذين يريدون أن يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن أكذب رغبة فى الكذب ، ولا تعلقاً به ، ولا حرصاً عليه ولا إيثاراً لغش الجامعة وتضليلها ، وإنما أكذب إن كذبت رغبة فى العلم وتهالكاً عليه وحرصاً على أن أغير حياتى وأجعل لها معنى وقيمة وخطراً وأثراً فى منفعة الوطن . والكذب مرذول إلا أن ينتهى إلى نفع وإلى نفع صحيح ، وأن يحقق مصلحة ومصلحة قيمة ، فماذا ترى ؟ أليس هذا الكذب خيراً من الظلم الذى أقدم عليه إن طلقت امرأتى مع أنها لم تأت ذنباً ولم تقترف إثماً ولم تدفعنى إلى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره ، ولكنها لم تصرفنى عنها لأنها تؤمن بأنى لا أعزم إلا بعد تفكير صادق ، وانتهاء إلى رأى مصيب . وما أظنك تقترح على أن أصدق الجامعة وأظهرها على جلية الأمر . فانى إن فعلت لم يكن لهذا من أثر إلا أن تخيب آمالى كلها ، وأن أستيئس من رحلتى ، وأطمئن إلى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لا نفع فيها ولا غناء . وأنا أعلم حق العلم أنى لا أملك هذه الشجاعة ولا أحتمل هذه الحياة وأنى إن صرفت عن هذه الرحلة بعد أن مدت لى

أسبابها وهيئت لى وسائلها ميت من غيرشك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل نفسى إن ملكنى الغضب ، وسيقتلنى الحزن واليأس إن أتيح لى الصبر والاحتمال . فالغ هذا الفرض إلغاء وامحه محواً فليس لى بد من أن أكذب على الجامعة أو من أن أطلق امرأتى لأكون صادقا ، فاختر لى وأشر على . »

قلت قد أنسيت كل ما كنت أجد من تعب وجهد، وأنسيت الوقت وأنسيت المكان الذى أنا فيه ، وشاقنى علاج هذه المشكلة حتى ملك على أمرى كله ، وحتى أحسست كلفا بالأخذ والرد والحوار ما أحسسته قط فى درس من دروس العلم ، وقد لا يحسه شباب هذا الجيل الذى تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات بعد أن اتسعت حياتنا و بعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة الغربية وقرأنا من أدبها وفلسفتها الشىء الكثير . قلت : « فانى لا أرى لك الظلم بحال من الأحوال ولا أفهم أن تحمل امرأتك ذنباً لم تجنه ولا أن تحمل نفسك هذا الإثم الثقيل ، ومع ذلك فانى لا أرضى لك الكذب ولا أعينك عليه ولا آمن عليك شره وآثاره السيئة » . قال متضاحكا : « فأنت إذاً ترضى لى أن أموت » . قلت : « بل أرضى لك أن تكون رجلا وأن تؤمن بما تلح فى الدعوة إلى الايمان به ، من أن ظروف الحياة أقوى من إرادة الانسان ومن أن المثل القديم لم يعد الحق حين قال « لا بد مما ليس منه بد » . ومن يدرى ! لعلك تستطيع أن تصور للجامعة أمرك كما هو وأن تحملها على أن ترضى منك هذا

الزواج الذى لن يكون له فى حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفا . قال : فانك تعلم حق العلم أن الجامعة لن تغير نظامها من أجلى ، وأنى لم أنجح وحدى فى الامتحان ، وأن من ورائى اثنين يودان لو تقطعت بى الأسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها أحدهما من دونى . فأنا إن صدقت الجامعة . مضح برحلتى من غير شك و إذا حيل بينى و بين هذه الرحلة فقد حيل بينى و بين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس إلى هذا الصدق من سبيل . وأنت تخطىء إن ظننت أنه تحمس الشباب أو أنه التعجل والتقصير فى التفكير ، فأنا أعرف نظام الجامعة هذا قبل أن أقدم على الامتحان ، وأنا أفكر فيه منذ أعلنت الجامعة حاجتها إلى هذه البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس إلى هذا الصدق الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أصارح الجامعة بجلية الأمر . قلت و إذاً : ففيم تستشيرنى وقد أجمعت أمرك ووطنت نفسك على الكذب ؟ قال : كلا يا سيدى لم أوطن نفسى على الكذب ولو قد وطنت نفسى عليه لأمعنت فيه ولأخفيت جلية الأمر عليك ولاجتهدت فى إخفائها على نفسى ، ولكنى قد وطنت نفسى على الظلم ، فأنا أريد أن أكون صادقاً ، حين أتحدث إلى الجامعة ، إذا كان الصباح ، وأن أكون ظالماً لنفسى ولامرأتى . قلت : فإنى أرى فى هذا إثماً بشعاً واستباحة قبيحة للشر ، واعتداء على حق من لا تملك الاعتداء عليه . قال وهو يضحك ضحكاً حزيناً : وأنت مع هذا أزهرى تدرس الفقه وتعرف أن الطلاق مباح وأنه أبغض الحلال إلى الله ولكنه مع ذلك حلال لا خطيئة

فيه ، ولا إثم على الذين يقدمون عليه . فأمر الزواج عندنا ليس إلى امرأتى بعد أن قبلته وهو ليس إليها و إلىّ ، و إنما هو إلىّ وحدى ، فأنا أستطيع أن أمسكه إن شئت وأستطيع أن أحل عقدته إن أردت ، وأنا أريد أن أحل هذه العقدة لا إيثاراً للطلاق ولا رغبة عن امرأتى ولكن إيثاراً لما هو خير من الزواج ولما هو خير من الزوج و إن كانت خليقة بالحب والمودة والعطف ، إيثاراً للعلم ورغبة فى رقى النفس والعقل . قلت : فإنى أخشى أن يكون هذا كله غروراً ووحياً من وحى الأمانى ، وما أدرى أيهما خير : هذا العلم الذى تتحدث عنه كأنه شىء لا يدرك إلا إذا تكلفت له ما ستتكلف من الشر ، أم هذه الزوج التى أصفتك ودها ومنحتك حبها ، ووقفت حياتها عليك وجعلها الله رحمة لك وسكناً . ومن يدرى ! لعل تحصيل هذا العلم الذى تتهالك عليه وتستبيح فى سبيله الظلم ، أن يكون ميسراً لك وأنت مقيم فى مصر بين أهلك لا تفارقهم ولا تتكلف لهم ظلماً ، ولن تكون أول من حصل العلم دون أن يرحل إليه ، والعلم يعبر إلينا البحر من أوربا ، وهو يسعى إلينا فى دورنا ، ونحن نستطيع أن نلتمسه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الكتب . و إنى لأخشى ألا يكون حب العلم الخالص هو الذى يغريك بهذه الرحلة التى لن أتحرج من أن أراها آثمة ، و إنما يغريك بها سأم الأديب والحرص على تغيير الحياة ، والطموح إلى منصب الأستاذ ، وهذا كله يغرى ، ولكنه يجب أن يكون أهون على الرجل الكريم من أن يدفعه إلى الظلم والإثم والعدوان . قال : يا سيدى إنك تضيع وقتك ووقتى ، فلن

تقنعني بالعدول عن الرحيل ، ولا بإظهار الجامعة على جلية الأمر . وليس إلى اقتناعي بالكذب على الجامعة سبيل . أتدري لماذا أهون عليك ؟ فإني أرى هذا الكذب مباحاً وما أكثر ما أبيح لنفسي أشياء تحرمونها أنتم على أنفسكم ، ويحرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الأخلاق . أنا لا أكره هذا الكذب لأني أراه إثماً ، وإنما أكرهه لأنه سيدفعني إلى آثام أمقتها حقاً ، وإلى ظلم أرى أن ظلم الطلاق أهون منه . إني لأعرف من أمر أوربا شيئاً كثيراً . وقد قرأت غير قليل مما ترسل إلينا من القصص ، وسمعت غير قليل من أنباء الذين يرحلون إليها ويقيمون فيها . وكل هذا ينبئني بأني لن أقاوم الحياة الأوربية وآثارها في نفسي كما ينبغي للرجل الوفي لزوجه أن يقاومها . فأنا واثق يا سيدي بأني سآثم وسأنغمس في الخطايا وأنا أريد أن أحتمل وحدي هذا الإثم وأنغمس وحدي في شر هذه الخطايا . وأنا أبيح لنفسي أن أكذب على الجامعة ، ولكني لا أبيح لنفسي أن أكذب على امرأتي كذباً متصلاً ، فأزعم لها أني وفي أمين ، على حين أني قد غرقت في الخيانة إلى أذني . قلت وقد اقشعر جلدي واضطرب قلبي وأخذني غضب عميق لا أكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه : فهل تعلم أنك تقول منكراً من القول ، وأنك تقدم على أمر بشع شنيع ، وأن حبي لك يحملني على أن أتمنى ما استطعت أن تصرف عن رحلتك هذه صرفاً ، وأن تكره على الإقامة في مصر إكراهاً . أنت تعلم أنك ستأثم في أوربا ثم تقدم مع ذلك على السفر إليها ، وتشتد في هذا السفر . فأنت إذاً تريد الإثم وتتعمد

الخطيئة وتصر على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكد تبلغ أذنيه حتى جن جنونه ، واندفع فى ضحك عريض ، عال متصل ، أخرجه عن طوره وكاد ينتهى به إلى الشرف جسمه وفى عقله أيضاً . وكان هو يضحك ويضطرب اضطراباً عنيفاً من شدة الضحك وأنا واجم ذاهل مبهوت أسأل نفسى أول الأمر عن هذا الخبل الذى مسه . ثم تثوب إلى نفسى قليلا قليلا وإذا أنا أحس العمامة التى على رأسى وأحس الجبة والقفطان اللذين أسبغا على جسمى إسباغاً ، وأذكر أنى شيخ وأنى أزهرى ، وأنى تحدثت إلى صاحبى حديث رجل الدين، وأن صاحبى يسخر منى ويهزأ بى ويردنى إلى مكانى الأول ، ويرى أن أمله فى قد خاب وأن اختلافى إلى الجامعة واستماعى للأساتذة الأوربيين وتحدثى إليه واستماعى منه ، وما قرأنا من كتب أوربية ، وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتنكر له ولهم ، وما كنت أرمى به من المروق وإيثار البدعة ، وما كنت أجد من اللذة حين أحس أن الناس يرون فىّ المروق وحب البدع ، كل هذا لم يكن إلا غشاء رقيقاً وطلاء يسيراً لا يكاد يثبت للتجربة الأولى ، فإذا جد الجد ، وكان أول درس من دروس الحياة العاملة التى ليست كلاماً ولا غروراً ، فأنا الشيخ الأزهرى القح الذى حفظ ما حفظ من كتب الدين وورث ما ورث من آثار القرون ، واحتمل فى قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصغيرتين ، ثقل السنين التى توارثتها الأجيال أثناء ثلاثة عشر قرناً .

أأقول الحق أم أخفيه ؟ ومالى لا أصطنع الشجاعة ولا أحمل نفسى على بعض ما تكره ، وإن الحياة لتحملها على ما تكره فى أكثر الأحيان . لقد استحييت من صاحبى ، واستحييت حتى انتهيت إلى الخزى ، وأحسست كأن رأسى ذاب فى عمامتى ، وكأن هـذه العمامة لم تكن تستقر على شىء . وأخذت أتضاءل فى جبتى وقفطانى . حتى خيل إلى أنهما يستقران على هذا الكرسى لا يملؤهما شىء . وأخذت قطرات من العرق تسيل على جبهتى فتبلها . وكادت الرعشة أن تجرى فى جسمى المتضائل المضطرب . كل هذا لأن صاحبى ظهر على جلية أمرى ، وعرف أنى ما زلت أزهرى النفس والقلب والعقل . أرى الانغماس فى الحياة الأوربية إثماً وأشفق على صاحبى منه ، وأرى الإصرار على الخطيئة وتعمد الاقدام عليها كفراً ، وأخاف على صاحبى عواقبه . وإذاً فأى فرق بينى و بين هذا الشيخ العتيق الذى كان يعرض بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيتغنى فى بعض دروسه بهـذه الجملة التى شاعت عنه والتى كنا نتندر بها ، ونضحك منها . وكنت أنا أشد الناس تندراً بها وضحكا منها ، « ومن ذهب إلى فرانسا فهو كافر أو على الأقل زنديق »

كذلك قال الشيخ وبذلك كنا نتندر فى الأزهر ، ومن ذلك كنا نضحك فى أنديتنا الحرة التى كان الأزهريون يرونها أندية ابتداع وضلال . فقد أصبحت أنا كهذا الشيخ أرى أن من ذهب إلى فرانسا فهو كافر أو على الأقل زنديق . ومع ذلك فان أساتذتى من الفرنجة فى الجامعة يرون أنى حر

الرأى ويشفقون على من حرية الرأى هذه ، وكنت أنا أرى أنى حر الرأى وأغتبط بما يصيبنى فى سبيل هذه الحرية . فقد كنت إذاً أكذب على نفسى ، وكنت إذاً أخدع أساتذتى، ولم أكن إلا شيخاً أزهرياً قحاً يرى أن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق

كذلك كنت أفكر مستخزياً متضائلاً من الخزى بينما كان صاحبى يغرق فى الضحك ، حتى إذا أعياه اضطراب جسمه هدأ بعض الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث أن يعود إليه الضحك العنيف فيهزه هزاً عنيفاً وهو يردد كلمة المعصية هـذه ويقول "مازلت تؤمن بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، ومازلت تفكر فى الكفر والإيمان ."

ثم يمضى فى الضحك وأمضى أنا فى الخجل والاستخزاء . ومع ذلك فلو أنى كنت أتحدث إلى رجل هادىء عادى غير غريب الأطوار ، لما أنكرت من حديثى شيئاً ولما رأيت على نفسى منه بأساً ، فلم أكن أرى الذهاب إلى فرنسا كفراً ولا زندقة وإنما كانت طبيعتى كلها تثور لهذه الجرأة الوقحة ، التى كان يقدم عليها صاحبى فى غير تكلف ، وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغماسه فيها وتهيئه للانغماس فيها . ولقد مضت أعوام وأعوام وذهبت إلى أوربا مرات ومرات وأقمت فيها. فأطلت الإقامة ، وما زلت اليوم كما كنت فى تلك الليلة تثور طبيعتى كلها إذا سمعت من يتحدث فى هذه الجرأة الوقحة عن الخطايا والآثام والتهيؤ للانغماس فيها . ولا بد من أن أمضى من قول الحق إلى أقصاه ، فقد وادعت صاحبى وصانعته

واجتهدت فى أن أقنعه بأنى لست شيخاً أزهرياً قحاً ، لم أحبب إليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيؤ للانغماس فى الخطايا والآثام . ولكنى فقدت القدرة على مقاومته . وعجزت عن محاولة إقناعه بما كنت أرى ، لا لأنى ملت إلى رأيه ، بل لأنى كرهت أن يرانى شيخاً أزهرياً قحاً يؤمن بأن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق .

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشباب فاذا هم يتكلفون ما لا يحسنون ويحملون أنفسهم مالا يطيقون ، و يتكلفون هذا النفاق الغريب يخفون به مافى نفوسهم من أصول الخير و يظهرون به مايرغبون فيه من مظاهر التجديد .

ثم يرتفع الضحى و إذا صاحبى يردنى إلى بيتى و يفارقنى ليذهب إلى الجامعة ويقول فى لهجة ساخرة لاذعة : سألقاك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فاذا لقينى فى آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد احتجزت له مكانه على إحدى السفن، وأنه مرتحل بعد أسبوع وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم إلى الريف وأن طلاقها سيبلغها إذا كان الغد .

٩

يونيو فى سنة . . .

بينك و بينى أيها الصديق العزيز فتور أحسسته أمس حين التقينا فى قهوتكم هذه التى تزدحم بالشيوخ ، و يشتد فيها لغطهم بالفقه ، والنحو ، والأدب ، وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التى تصدر عن الناس

وعن الترام وعن هذه العربات التى تخرج مع المساء من درب الجماميز إلى شارع محمد على ، لتنبث فى أحياء القاهرة موزعة عليه مايحتاج أهلها من اللحم . وقد كان هذا الضجيج المختلط خليقاً أن يحول بينى و بين الشعور بهذا الفتور ، حتى يطول الحديث بيننا ، ولكنى لم أكد أصافحك حتى أحسست الفتور فى يدك ، وتأكدت أنه صورة للفتور فى نفسك ، فلما تحدثنا فصل لى صوتك الهادىء ما أجملت يدك ، واستيقنت أن بينك و بينى شيئاً .

ولولا أصحابك من الشيوخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من بعد ، وأكره أن أجلس إليهم ، وأن يتصل بينهم و بينى الحديث ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء ، وما كانوا يشغلوننا به من أحاديثهم عن الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم ، وما كانوا يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يمرون بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الأطعمة الرخيصة ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء لما اتصل الحديث بينك و بينى أمس إلا فى هذا الفتور الذى تبينته فى يدك وفى صوتك ، وفى وجهك . ولما انصرفت عنك إلا وقد رددت الأمر إلى ما كان عليه ، من هذا الصفاء القوى الذى لا تكلف فيه ، ولا احتياط . ولكنى جعلت أنتهز الفرص لأخلو إليك ولتفرغ لى فلا تسنح ، ولم يكن من اليسير أن أطلب إليك النهوض معى لبعض الشئون كما تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعتذر ، وستتعلل بأنك متعب مكدود من ليلتك البيضاء ، التى قضيتها معى أمس .

على أنى لم ألبث أن تبينت أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أقدر حين رأيتك تتعجل العودة إلى بيتك ولا تحفل بإلحاحى عليك وإلحاح أصحابك فى أن تبقى معنا كما تعودت أن تبقى حتى يتقدم الليل ، وتقل الضوضاء فى الشارع ، ويطيب الحديث فى هذه القهوة الجميلة .

ولقد هممت أن أنهض لأرافقك إلى بيتك ، وكنت أظن أن فى مرافقتك هذه الدقائق ما يتيح لى أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور ، وكنت واثقاً بأنى إن بلغته فلن أدعه حتى أمحوه محواً ، وإن أرقتك ليلة أخرى . ولكن الله لم يرد ذلك ، أو لم يرده أصحابك الشيوخ ، فقد نهض صاحباك هذان اللذان طالما نغصا على مجلسى معك فرافقاك ، واضطررت أنا إلى التخلف ، والله يعلم إلى أين ذهبتم ، فلست أشك فى أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت إلى بيتك ، وأكاد أعتقد أنك إنما تكلفت الانصراف وتعجلت العودة لتتخلص منى وممن كان من أصحابك ، ولتتفرغ لصديقيك هذين فتقضى معهما شطراً من الليل غير قليل ، فيما تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث .

ولولا أنى كرهت أن أثقل عليك وعليهما وأن أوصف بالإلحاح ، لتبعتكم لأعلم علمكم ، ولأسقط عليكم بعد أن يستقر بكم المجلس ، ولأتخذ موضوعاً للصراع بينهما وبينى ، فلا أنصرف عنك ، حتى أصرفهما ، وما أوسع حيلتى حين أريد أن أصرفهما عنك ، وأى شىء أيسر من أن آخذ معك فى بعض الحديث ، الذى لا يحبانه ، ولا يسيغانه ، ولا يفهمانه ، فإذا

أنت تجيب وإذا أنا أمضى فى الحديث ، وإذا هما يظهران الضجر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتثاءبان ، ثم يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان، ولكنى لم أنشط لشىء من هذا لأنى لم أجد منك مايعيننى على النشاط إليه ، ولأنى لم أجد من نفسى ما يدفعنى إلى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاتراً ، وكنت أنا مثقل النفس بالهم ، مملوء القلب بالحزن ، والله يعلم ما احتجت إليك فى يوم أو ليل كما احتجت إليك أمس ، وما افتقدتك فى يوم أو ليل كما افتقدتك مساء أمس . لقد رأيتكم تنهضون ، وأتبعتكم بصرى وأنتم تسعون إلى درب الجماميز . حتى إذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى فى الفضاء أمامه كأنما كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم وأن يدعوكم إلى وأن يردكم على ، ولكن بصرى لبث ثابتاً فى الفضاء ، لم يستطع أن يتبعكم ولا أن يبلغكم ولا أن يؤدى إلى أنفسكم ولا إلى نفسك أنت خاصة رسالة نفسى ، فرددته إلى خائباً محزوناً ، ومكثت فى قهوتكم هذه أنظر ولا أكاد أرى وألقى السمع ولا أكاد أسمع ، ويتحدث إلىّ من حولى فأجيب حيناً ، وأذهل أحياناً عن الجواب . وقد تفرق الناس من حولى كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف . وخلت القهوة لى ولجماعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ، فأنفقت فيها ما استطعت أن أنفقه من الوقت ، وأستطيع أن أنبئك صادقاً بأنى دهشت حين سمعت الخادم ينبهنى إلى أن قد آن أوان الإغلاق ، فنهضت كارهاً متثاقلا ، وأخذت الطريق التى أخذتموها ، فى درب الجماميز ، أسعى أمامى وكأنى كنت أقدر

أننى سألقاك عائداً إلى بيتك مع أحد صاحبيك ، فآخذك منه قهراً أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين فى القاهرة ، أو لاجئين إلى دارى أو إلى هذا السطح الجميل الهادىء الذى ينبسط أمام بيتكم الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم إنما ذهبتم عند أحدكم فى هذا البيت الذى يسكنه غير بعيد من بيتى، عند جامع ابن طولون ، فسمرتم ماشاء الله أن تسمروا وهزأتم بشيوخكم فى الأزهر ماشاء الله أن تهزأوا ، وذكرتم من أنباء صاحبكم . . . ماشاء الله أن تذكروا ، وتناشدتم الشعر وهجا بعضكم بعضاً ، وأثنى بعضكم على بعض ، ثم آن لكم أن تتفرقوا فبقى أحدكم فى بيته وخرجت أنت مع صاحبك تسعيان فى هدوء الليل الساكن وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من هؤلاء السكارى الذين يتخبطون فى هذه الأحياء الوطنية حين يعودون إلى بيوتهم آخر الليل ، حتى إذا بلغتما بيتك آويت إليه ، ومضى صاحبك وحيداً ، يسرع فى هدوء الليل كأنه السهم، حتى يبلغ داره فى أقصى الظاهر.

كنت أقدر هذا كله وأكاد أثق به ، وأكاد لا أشك فى أنى سألقاك مع صاحبك فى بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام من بعد ، إلا خيل إلىّ أنها أقدامكما ، ولكنى قطعت درب الجماميز حتى انتهيت إلى السيدة دون أن ألقاكما ،ثم مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم ألقكما ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك ، فلم ألقكما ، ولم أر فى البيت ما يدل على يقظة ، ولم أسمع منه ما ينبىء باتصال السمر والحديث .

فمضيت فى طريقى يائساً من لقائك محزوناً لهذا الفتور الذى لم أستطع

أن أمحوه حتى انتهيت إلى بيتى، وليتنى لم أنته إليه ، لقد كنت ذاهلا حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت أن أفعل وانتظرت ، ثم دققته مرة أخرى ومرة ثالثة ،وكان الصوت يتردد فى هذه الدار ثم يعود إلى فينبئنى بشىء لا أكاد أفهمه ، حتى إذا كانت الطرقة الثالثة عاد الصوت إلى ينبئنى بما فهمته وارتعت له ، عاد الصوت إلىّ يقول لى إنك لأحمق ، فيم تطرق الباب وليس من ورائه من يسمع لك ، ولا من يسرع إليك ، لقد تحمل من كان فى البيت وأصبح البيت خالياً فارغاً هادئاً ينتظر مقدمك لتملأه وتعمره وتذيع فيه الحركة ، لا تعد طرق الباب ، فلن يستجيب لك أحد ، ولكن أخرج المفتاح وأدره فى القفل أمامك ، فاذا انفتح الباب لك ، فادخل وأغلقه من دونك أو لا تغلقه ، فمن يدرى! لعلك لا تستطيع مصاحبة هذه الوحدة المروعة فى هذا البيت الذى لم يتعود الفراغ . لن تهديك الخادم الصغيرة بمصباحها الضئيل كما تعودت أن تفعل ، فأنت تعلم أنها سافرت مع سيدتها ، فأخرج من جيبك علبة الثقاب وأضىء لنفسك ظلمة الطريق واذهب إلى أى الوجهين شئت ، اذهب إلى غرفتك الحرام ، فلا بأس عليك من الالتجاء إليها ، لن يبلغك فيها صوت ، ولن تنتهى إليك فيها حركة . ولن تتحدث فيها إلى صديقك ، ولن تلقى فيها إلا كتبك التى لا تحصى. ومن يدرى! لعل نفوس المؤلفين لهذه الكتب قد أقبلت جماعات من أعماق الزمان ومن أقطار الأرض ، لتؤنس وحشتك فى هذه الغرفة الخالية . واذهب إن شئت إلى غرفة نومك فلن ترى فى السلم سراجا مضيئاً

ولن ترى إذا انتهيت إلى أعلى السلم خادمتك الصغيرة مستلقية تغالب النوم وتنتظر مقدمك . ولن ترى فى غرفتك امرأتك فى سريرها تتكلف النوم وهى مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك، ولا أن تشق عليك ولا أن تلقى فى روعك أنها تأرق حتى تعود إلى غرفتك . فالله يعلم أنها لا تأرق إلا انتظاراً لك ، وشوقاً إليك ، ولكنك خليق أن تسىء الظن وأن تقدر أنها إنما تأرق لتحصى عليك الساعات . تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترفقاً ولا محتاطاً فلن توقظ أحداً ، ولن يحس مقدمك أحد ، ومن يدرى ! لعل ظلاً من امرأتك قد أقام فى هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى أن يفارق هذا البيت حتى تفارقه أنت لتعبر البحر .

ثم عاد إلىّ صوت الطرقة الثالثة بهذا الحديث الطويل ، فى لحظات لا أدرى أكن طوالا أم قصاراً ، ولكن الذى أعلمه هو أنى لم أخرج المفتاح ولم أدره فى القفل أمامى ، ولم يفتح لى الباب، وإنما لبثت قائماً أمام البيت بعد أن تردد هذا الحديث فى أعماق نفسى ، فملأها حزناً ووحشة ورعباً ، وأكاد أكتب وندما ، ولكنى لا أريد أن أعترف بأنى أحسست الندم

لبثت قائماً أمام البيت أسأل نفسى أأقدم أم أحجم ؟ أأدخل الدار أم أنصرف عنها . ثم لا أخفى عليك لقد عجزت عن الإقدام وكرهت أن أفتح الباب ، ولم أحس شوقاً إلى لقاء الظلال ، ظلال العلماء والأدباء والفلاسفة ، قد أقبلوا يؤنسون وحشتى فى الغرفة الحرام . ولم أجد جلداً على أن ألقى ظل امرأتى فى غرفة نومى ، وإنما استحييت منه أشد الاستحياء ، لم أدخل

الدار و إنما انصرفت راجعاً أدراجى ، ومضيت أهيم فى الطريق أمامى ، أخرج من شارع لأدفع إلى شارع آخر ، لا أحفل بما قد يظنه بى هؤلاء الخفراء والشرطيون الذين لا أشك فى أنهم كانوا ينكرون شخصى الهائم ، فى مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل ، ولعل منهم من هم أن يسألنى عن أمرى ، ولكنه لم يجد على من مظاهر الريبة ما يغريه بهذا السؤال ، فخلى بينى و بين الطريق .

وما زلت أهيم وأهيم فى غير وجه حتى أحسست يقظة الناس من حولى ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء إلى الله ، فثابت إلى نفسى بعض الشىء مع ضوء النهار ، وتكلفت فى مشي ومظهرى ما يصرف عنى كل ريبة أو شك ومضيت فى هيامى ، ساعة و بعض ساعة ، ثم أنظر فإذا أنا عند قهوتكم هذه التى التقينا فيها مساء الأمس . من أين جئتها ، وكيف انتهيت إليها ، لا أدرى ، ولكنى قد بلغتها و بلغتها متعباً مكدوداً ، وما كدت أرى هذه الكراسى ينسقها الخادم فى شىء من الكسل والفتور حتى أحسست كأن هذه الكراسى تدعونى إلى الراحة ، وحتى رأيتنى أستجيب لدعائها ، وأسرع إلى الجلوس ، وأطلب إلى الخادم أن يحمل إلى الشاى . ومن قهوتكم هذه أكتب إليك الآن أيها الصديق . وكنت أريد أن أتحدث إليك عن هذا الفتور الذى أحسسته منك أمس لأمحوه ولأتم معك الحديث الذى كنا فيه والذى قطعته أنا بهذا الضحك المفاجىء السخيف الذى دفعت إليه دفعاً والذى أفسد الأمر بينك و بينى . ولكنى

لم أحدثك إلى الآن إلا عن نفسى وعن ليلتى البيضاء الثانية التى قضيتها فى غير راحة ولا أمن ولا هدوء . على حين لهوت أنت مع صاحبيك ثم استمتعت بالراحة والنوم ، وها أنت ذا الآن تستقبل النهار نشيطاً مستريحاً مبتسما للحياة ، تريد أن تمضى فيما تعودت أن تمضى فيه من القراءة أو الدرس ، أو تريد أن تخرج للقاء صاحبيك أحدهما أو كليهما ، أو تريد أن تنتظرهما فلعلهما أن يزوراك ليخرجاك أو ليبقيا معك . ألست ترى أنك أثر مسرف فى الأثرة وأنك تترك صديقك يحتمل وحده أثقال الشقاء ؟ ألست ترى أن من حق صديقك عليك أن تسرع إليه فتسمع منه ، وتقول له ، وتسليه وتواسيه ، فإنه سيشقى وحده دهراً طويلا حين يعبر البحر إلى تلك البلاد التى ليس له فيها صديق ؟

سأرسل إليك هذا الكتاب مع خادم القهوة وسأنتظر بعد إرساله ساعة فمن يدرى لعلى أن أراك مقبلا مع غلامك الأسود الصغير . . . .

دخل علىّ بهذا الكتاب غلامى الأسود الصغير هذا وأنا أتهيأ للخروج وكنت كما قدر صاحبى على موعد من صديقى لنذهب إلى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب علىّ فى لهجته الأسوانية التى كانت تضحكنى عادة لأنها تجعل القاف غيناً والغين قافاً والتى لم تضحكنى اليوم وإنما آذتنى وملأت صدرى حرجا . لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا إلى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرنى صديقاى ، بل إلى قهوة الزاوية حيث كان ينتظرنى صاحبى هذا الشقى .

١٠

ألم أقل لك أول أمس إنى سأصبح بطلاً قبل أن ينتصف النهار من غد؟ فانى قد صرت بطلاً منذ أمس وما أظنك تمارى فى ذلك بعد أن قرأت الكتاب الذى أرسلته إليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة أمامه بعصاه ضرباً خفيفاً ، فلما أقبل الخادم طلب إليه إبريقاً من الشاى ، ثم استأنف حديثه متعباً مكدوداً وفى صوته شىء غير قليل من التكسر والفتور.

قال: نعم لقد صرت بطلاً منذ أمس ، بطلاً لقصة قد تكون كلها جداً وقد تكون كلها هزلا وقد تكون مزاجاً من هذا وذاك ولكنها قصة لا بد لها من بطل على كل حال ، وقد أردت أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس من الأشياء الهينة أن يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها و يؤثرها و يعرف لها جميلاً لا يستطيع أن يقدره ولا أن يكافئها عليه . ليس هذا من الأشياء الهينة ولا سيما حين تكون هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة القلب نقية الضمير لا يأخذها زوجها بخطيئة ولا يتعلق عليها بسيئة ولا يلقى منها إلا ما يسره و يبره و يرضيه ، ومع ذلك فقد أقدمت على هذا الشىء الخطير إيثاراً للعلم وإن شئت فقل إيثاراً لرقى الدرجة وارتفاع المنزلة ، وإن شئت فقل اجتناباً للكذب على الجامعة وفراراً من الخيانة الممكنة ، بل الراجحة ، بل المحققة . وأنا أعلم أنك قد أنكرت علىّ هذا وأنك كنت تجادلنى فيه ، ولكن تلك

الضحكة التى لقيتك بها حين انتهيت إلى بعض الحديث قد قطعت علىّ وعليك هذا الجدال وكادت تفسد ما بينك و بينى من الأمر .

فالآن وقد قرأت كتابى وعرفت من أمرى ما عرفت وزال من نفسك هذا النفور الذى كنت أحسه أمس فقد نستطيع أن نعود إلى هذا الحديث لتعلم أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أعتزم و أنى لست مخطئاً فيما تممت عليه من فراق امرأتى قبل أن أرحل إلى أوربا . وأقبل الخادم يحمل الشاى فملأ منه قدحاً لى وقدحاً له وهو يقول هذا خامس أقداح الشاى التى شربتها منذ بلغت هذا المكان فى أول النهار .

ثم عاد إلى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى داره ، فقال : لقد كنت تلومنى على أنى أقدر الإثم وأفكر فيه وأعلم منذ الآن أنى سأقترفه وأتهيأ بفراق امرأتى لاقترافه ، وكنت ترى الإصرار على هذا كله خطيئة بل كفراً وخروجاً من الدين ، وكان حديث الكفر يدهشنى لأنى لم أكن أنتظره منك بعد أن عرفتك حر الرأى غاليا فى التجديد . فلا تغضب إن أظهرت هذا الدهش ، وعد بنا إلى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ أن يعرف الانسان مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وأن يحتاط لما يعرف من ذلك فلا يقترف من الآثام ولا يجترح من السيئات إلا ما لا يجد منه بداً ولا عنه منصرفاً . أم أن يخدع الانسان نفسه و يغره بها الغرور فيضيف إليها الخير وليست بخيرة و يثبت لها الفضيلة وليست بفاضلة و يحملها ما تطيق وما لا تطيق ، و يقترف من الآثام ما يستطيع أن

(1) en me séparant de ma femme
(2) prenne les précautions

يجتنبه ويتقى التورط فيه . وما رأيك فى أنى أعرف من نفسى مواطن الضعف وأقدر أن الحياة الجديدة فى ذلك البلد الذى أنا راحل إليه ستمحو منها هذا المقدار اليسير الذى بقى لها من رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ما تواضع الناس على أنه الخير، وستغمرنى أمواجها الزاخرة المصطخبة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وإنما أعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير ما يأتون . أفإن صارحت نفسى بالحق وأخذتها بأن تحتمل وحدها أوزار أعمالها كنت خاطئا ممعنا فى الخطيئة وكافرا مسرفاً فى الكفر . فاذا ضللت نفسى تضليلا وغررتها تغريرا وزينت لها وللناس أنى سأكون فى فرنسا خيراً مما أنا فى مصر تقيا نقيا وبرا طاهر القلب، وأنا أعلم أن ذلك لن يكون مهما أحاوله وأعلم قبل ذلك أنى لن أحاوله لأنى لن أستطيع التفكير فى محاولته ، أفإن عمدت إلى هذا التضليل والتغرير برئت من الخطيئة ونجوت من إثم الكفر والمروق . ألست ترى فى هذا النحو من التفكير والفهم والحكم عوجا والتواء ؟ قلت : لا أدرى ولكنى أوثر للرجل أن يقع فى الخطيئة إن لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك ولا تهيؤ له ولا تفكير فيه ، وأرى فى هذا الاستعداد للاثم بدأ فى اقترافه وفى هذا التهيؤ للاساءة شروعاً فى الإساءة وفى هذا التفكير فى الشر قبل أن يقع مع أن من الممكن ألا يقع استعداداً رديئا للشر وإلحاحا آثما فى دعائه ، وقد كان يحسن ألا تدعوه . والأمر لا يقف فى رأيى عند الدين ولا عند الكفر والايمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد

والأخلاق ، وإنما هو يتجاوز هذا كله إلى شيء لا أدرى كيف أصفه ، ولكن صورته تقع من نفسى موقعاً سيئاً . فقد يخيل إلىّ أن الإنسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى أمام نفسه إن وجد إلى ذلك سبيلا . وقد يخيل إلىّ أن حياء الرجل المثقف من نفسه هو خير أنواع الحياء وأرقى منازله . وقد يخيل إلىّ أن فى مواجهتك لهذا الشر الذى لم تعرفه ولم تدفع إليه بعدُ وفى تأهبك له ، شيئاً من الخروج عن هذا الحياء الذى لا ينبغى للرجل المتحضر المثقف أن يبرأ منه .

قال : فأنت تريد أن تقول إنى وقح أمام نفسى ، فليس غريباً أن أكون وقحاً أمام الناس ! قلت فى شيء من التحفظ : هو ذاك ، بل إن فى الأمر ما هو أغرب من هذا ، فانك لا تظهر وقحاً أمام الناس ، وما أعرف أن أحداً أساء الظن بك أو شك فى سيرتك أو رماك بالخلاعة أو اتهمك بالمجون . فأنت إذاً تظهر للناس غير ما تضمر ، وأنت إذاً تكاشف الناس بما لا تكاشف به نفسك ، وأنت إذاً خليع ماجن ، ولكنك تظهر للناس أنك صاحب جد واحتشام . قال وقد عاد إليه نشاطه واستأنف ضحكه العريض : فإنى يا سيدى خليع ماجن ، ما أرى فى ذلك عيباً وما أشك فى أنى عظيم الحظ منه . وإذا أخفيت ذلك على الناس فما أخفيه إلا اتقاء لشر الناس وإيثاراً لمنفعتى ليس غير . فقل إنى وقح فى السر ، وقل إنى رجل لا حظ له من حياء ، فأنت إن قلت ذلك لم تعدُ الحق ولم تؤذنى ؛ لأنك لست كغيرك من الناس ، ولأنك لا تملك أو لا تستطيع أن تؤذينى وأن تفوت علىّ حظى

من الخلاعة والمجون . وأنا على هذا كله أرى أنى أقرب إلى الخير من قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجونا ، ولا يكشفون للناس ولا لأنفسهم عما يطوون من سرائر بغيضة ونيات آثمة خبيثة . فأنا أريد أن أحتمل وحدى وزر خلاعتى وثقل مجونى ، وأنا أعلم أن حساب ذلك بينى وبين ضميرى أو بينى وبين الله . ولكنى لا أحب أن أمسك امرأتى فأحملها ثقل ما أقترف من الآثام والسيئات ، وأخونها وأنا أزعم لها أنى وفى . إنى لأعلم أنى ما خنتها منذ اتخذتها لى زوجا على كثرة ما نازعتنى نفسى إلى الخيانة . ومن يدرى ! لعل حظى من الحياء أمام نفسى أكثر مما تظن . ومن يدرى ! لعل حظى من هذه الأخلاق الأخرى التى تعصم الرجل من الخلاعة والمجون أكثر مما تظن أيضاً . وإنى لأقيس نفسى إلى صاحبك هذا الشيخ يظفر بالإجازة التى تجعله من علماء الدين وتضمن له أجرا يوسع عليه فى الحياة ويمكنه من الترفيه على نفسه ، حتى أقدم على ما تعلم ومالا تعلم من الآثام والخطايا والخصال التى لا تلائم علماً ولا دينا ولا خلقاً ، فهو يغرق فى المجون والإثم إلى أذنيه حين تمكنه الفرصة ، فان لم تواته دعاها واتخذ إليها الوسائل والأسباب . وهو فى الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها أنه أطهر الناس سيرة وأعفهم لسانا وقلباً ويدا . وهو فى الوقت نفسه يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الإيمان والنسك ، ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون فى المسجد قد سبق إلى الصف الأول ، ولا تراه فى مجلس من المجالس العامة ولا فى ناد من الأندية إلا وفى يده سبحة يعبث بها ، أو كتاب من كتب العلم أو الدين ينظر فيه أو ينصرف من

النظر فيه وكأنه قد أكره على هذا الانصراف إكراها . أنا ياسيدى خير من هذا الشيخ فى نفسى ، وخير منه فى نفسك ، وخير منه عند الله .

قلت ضاحكا : أما أنك خير من هذا الشيخ فى نفسك وفى نفسى فهذا شىء ليس فيه شك . وأما أنك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا . وما أرى إلا أن كليكما شر من صاحبه ، وما أرى أن الوقاحة فى الإثم خير من النفاق ، ولا أن النفاق فى الإثم خير من الوقاحة ، إنما أمركما كحمارى العبادى قيل له أيهما شر ؟ فقال : هذا ثم هذا .

قال وقد أرسل من فمه ضحكة ملأت القهوة ، وما أشك فى أنها لفتت إلينا من كان فيها من الناس : ليس هذان الحماران سواء يا سيدى ، بل إن بينهما شيئاً من الاختلاف . فأما أحدهما فقد ينفق النهار لا يذوق طعاماً وقد يأرق الليل لا يذوق نوماً ، حتى إذا استقبل الصبح وأدركه الضعف وأضناه الأرق والتفكير استعان على الضعف والضنى بأكواب من الشاى يحسوها هادئاً رفيقاً ، ثم يخوض معك فى أحاديث العلم والدين ، ويجادلك فى الأخلاق وفلسفة الأخلاق ؛ فهو حمار مثقف متحضر ، إن جاز للحمير أن تأخذ بحظ من ثقافة أو حضارة . وأما الآخر فهو الحمار الذى ذكره القرآن ، يحمل الأسفار ويشقى بثقلها ولا يعى ولا يفقه مما فيها شيئاً . ولو قد رأيته منذ حين فى هذا المكان الذى لم يبرحه بعد لوليت منه فراراً ولملئت منه رعباً ، إذا لرأيت حيواناً قد أقبل على طعامه من الفول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه من اليابس والأخضر ، وهو يلتهم الفول التهاماً ،

ويقضم البصل قضما ، وبين يديه هذا الغلام الذى لا يزال معه إلى الآن يأكل متحفظاً مستخذياً من نفسه ومن مكانه بين يدى هذا الشيخ أمام الناس . ثم يفرغان من الالتهام والقضم ، ومن الازدراد والخضم ، ويحمل إليهما الشاى ، فاذا الغلام يتناوله فى أناة ومهل ، وإذا شيخك الحمار أو حمارك الشيخ لا يكاد يملأ القدح حتى يلقيه فى جوفه إلقاء كما يصب الماء من النوافذ على الأرض صباً . وأقسم لقد رأيته منذ حين يقبل على هذه القهوة ضعيفاً مكدوداً ويسعى إلى مجلسه منها بطيئاً متهالكا ، ثم يلقى نفسه على كرسيه إلقاء ، كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغى له من اعتدال القامة ، فخر على كرسيه كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيته يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فما شككت فى أنه أنفق ليله أو أكثر ليله فى غير النوم وفى غير ما يأرق له النساك والصالحون ، وفى غير ما يسهر له العلماء والمفكرون ، وفى غير ما أنفقت فيه ليلى من ألم وندم ومن هيام واضطراب فى الأرض . ثم لم يكد يستقر ويستقر غلامه هذا بين يديه ، حتى أقبل الخادم فسمع منهما كلاماً ثم انصرف ، وأقبل صاحب الفول يحمل آنيته وطعامه وحزماً من البصل . وانكب الشيخ على ما قدم إليه لا يعقل ولا يعى ولا يستأنى ولا يكاد يمضغ أو يذوق ، إنما هى يد تنقل الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه فى مكانه الآخر من جوفه . حتى إذا امتلأ واكتظ وحاول أن يطفئ نار الهضم بهذه الأقداح من الشاى التى ألقاها فى حلقه إلقاء ، تهالك على كرسيه كما أراه الآن لا نائماً ولا يقظان ،

وإنما هو شيء بين ذلك . وغلامه جالس بين يديه يرمقه فى خزى وازدراء ، ثم ينظر فى صحيفته ويشغل نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم إلى أين يذهبان إذا قاما . والله يعلم فيمَ ينفق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ نهاره . وأكبر الظن أنه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك ، فيؤدى الصلوات فى أوقاتها ، ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع فى هذا المسجد أو ذاك من المساجد التى تلقاه فى بعض الطريق . كلا ! ليس الحماران سواء ياسيدى . أحدهما حمار متحضر مثقف ، والآخر حمار وحشى غليظ .

قلت وقد أغرقت فى الضحك : هما حماران على كل حال ، ولكن صورة الحمار الوحشى الغليظ تعجبنى من الناحية الفنية .

قال : كل يصف حماره الوحشى كما يستطيع؛ فما أظنك تريدنى على أن أصفه كما كان الشعراء الأقدمون يصفون حُمُرَهم الوحشية . وإنك لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمراً تمشى على أربع ، أما نحن فنرى حمراً تمشى على رجلين . ثم صب لنفسه قدحاً من الشاى وأخذ يدير الملعقة فيه مستأنياً بطيئاً كأنما يأتى عملا آليًا على حين قد شردت نفسه وفارقته إلى مكان بعيـد . وسكتّ عنه حيناً فلم يتحدث ، ومضيت فى الصمت فمضى فيه ومضت يده تدير الملعقة فى القدح . حتى إذا أنكرت منه ذلك قلت له : ويحك ! ماذا تصنع وفيم تفكر ؟

قال: ياسيدى إن الحمر لاتفكر ، ثم ألقى الملعقة من يده وأخذ يحسو الشاى مصمما على الصمت وماضياً فيه . قلت : فإنى أغضبتك حين شبهتك

مع صاحبك بحمارىِّ العِبادى ، فلا بأس عليك ، فواحدة بواحدة . لقد أغضبتنى أول من أمس ثم اعتذرت إلىّ ، وقد أغضبتك الآن وأنا أعتذر إليك ، فعد إلى مثل ما كنا فيه من الحديث .

قال : ما أغضبتنى وما أكره أن أكون حماراً مادمت أعرف أنى حمار مثقف متحضر . فارتفاع القامة فى السماء وانحناء الجسم الى الأرض والمشى على رجلين أو على أربع ، كل ذلك لا يعنينى ما دمت أجد اللذة والألم فى الحس والشعور والتفكير . أتدرى ماذا كنت أصنع حين أقبلت علىّ آنفاً ؟ . قلت لا . قال : فإنى كنت أتحدث الى امرأتى فأطلت الحديث ، ثم أحسست أنها لن تفهم من حديثى شيئاً ، فطويت كتابى وتحدثت إلى أبى فى الأسطر القصيرة التى أقرأها عليك . ثم أخذ يقرأ :

« والدى العزيز .

إذا انتهى اليك كتابى هذا ، فستجد معه صك الطلاق ؛ فإنى قد طلقت حميدة أمس على كره منى ؛ لأنى لا أدرى كم يطول مقامى فى أوربا ، وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تجن ذنبا ولم تقترف إثما . وما لها تتعذب لأنى أريد أن أتعلم ، وتشقى لأنى أكلف بالاغتراب ! . وإنى لمحزون لهذا الطلاق الذى أقدمت عليه ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . فاقرأ عليها تحيتى وعذرى واستوص بها وبأهلها خيراً . والسلام عليك ورحمة الله . »

ثم قال : وكذلك يا سيدى أديتُ فى هذا اللفظ القصير السخيف معان لا تتسع لها الكتب الطوال ، لأن الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس ، وأن تظل بينهم الحجب الصفاق ، فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم

يعيشون معاً وأنهم يتعاونون على الحياة وإن لكل واحد منهم لبرجاً من العاج يعيش فيه لا يظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على إنسان .

قلت : وكتابك إلى امرأتك ماذا صنعت به؟ قال: طويته . وماذا تريد أن أصنع به إلا أن أمزقه وألقيه إلى النار . قلت : فألقه إليّ إن لم تجد بذلك بأساً . قال: وأي بأس أن تلتهمه أنت أو أن تلتهمه النار ! سواء عليّ ، ولكن لا تطلب إليّ أن أقرأ عليك هذا الكتاب ! خذه وليقرأه عليك غلامك الأسود متى شئت . أما أنا فإني متعب مكدود ، وأظن أن قد آن لي أن أنصرف عنك ، فليس بد من أن يخلو هذا البيت مما فيه من الأثاث . قلت : ستنصرف عني ، وستخلي بيتك من أثاثه ، ولكن بعد أن تستريح فأنفق معي بقية اليوم وافرغ لأمرك إذا كان الغد . وقم فلننصرف الى بيتي ؛ فلعلك تظفر فيه ببعض الراحة .

ثم نهضنا متثاقلين ، وخرجنا متباطئين . فلما جاوزنا الباب قال في ضحك خفيف : ما زال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار في ركنه يقظان كالنائم ونائماً كاليقظان .

١١

يونيو في .....

لم يؤوني البيت منذ فارقتك ظهر أمس يا حميدتي العزيزة . ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتي كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة الى هذا

الوقت الذى أكتب إليك فيه وقد كاد يرتفع الضحى . ذلك أن فى نفسى الليل
صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقنى ، وهى صورتك قبل الرحيل وق
انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجمة لا تنطقين . ثم لم أكد أقبل
عليك وأدعوك باسمك حتى رفعت إلىّ عيناً مثقلة لا تريد أن ترتفع ، ثم
انهمرت دموعك انهماراً صامتاً لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير
وشهيق . وقد نظرت إليك وأنت فى هذه الحال ساعة لم أقل لك شيئاً و
ولم أقل لنفسى شيئا ، وإنما وجمت كما كنت واجمة ، ثم انهمرت دموعى كما
انهمرت دموعك ، ثم قام كل منا فى مكانه لحظات لا أدرى أكانت
طوالا أم قصارا ، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع غزير . ثم
سعيت إليك فى رفق فضممتك إلىّ وطوقتك بذراعى ، فلم تقولى شيئاً وإ
أسندت رأسك إلى كتفى وظل دمعك ينهمر سخيناً غزيراً . ثم أخذت
رأسك بين يدى ، ولثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعك شربا ، ثم
قبلت جبهتك وخديك ، ثم ضممتك إلىّ مرة أخرى فقبلتنى ، ثم افترقنا
ومضى كل منا فى الاستعداد للرحيل .

لم تفارقنى هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقنى ؛ فما زلت
منذ أمس أنظر إليك واجمة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعى
تذرفين دموعك على كتفى ، ثم أرانى أقبلك وأراك تقبليننى ، ثم أراك تسعين
فى الغرفة ذاهبة جائية تهيئين متاعك فى صمت متصل لا يقطعه شىء حتى
ولا زفرة من الزفرات . ولقد اضطربت فى المدينة بقية النهار وشطراً من

الليل ، ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم ، وخيل إلى
أنهم يفهمونني وخيل إلىّ أني أفهمهم، وخيل إليهم في أكبر الظن أني كنت
كما تعودوا أن يروني دائما ثرثارا ساخرا متصل العبث والمزاح . ولكن الله
يشهد ما خلصت لواحد منهم ولا خلص لى واحد منهم ، وإنما كنت أمنحهم
بعض نفسي أو كنت أمنحهم أيسر ما يستطيع الرجل أن يمنح من نفسه.
وكنت أرى أن هذا يكفى لأفهم عنهم وليفهموا عنى، وكانت خلاصة نفسي
مملوءة بك منصرفة إليك تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجا حتى
لكأنها هى . ولست أدرى: أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل، وأنى لا أحس
شيئاً ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليله ! ولكن كيف تعرفين
ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبينى إلا أيسر ما يكون من الصلات
بين الأزواج ! فأنت لا تعرفين من أمرى إلا أقله وأيسره، وأنا لا يفوتنى
من أمرك إلا أقله وأيسره . لست أدرى : أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل!
ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور علىّ ولزومها لنفسي وامتلاكها لقلبي
وامتلاء خواطرى بها وأحسست ما كان بينها وبين نفسي من الامتزاج ،
أخذت أفكر فيما يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون
عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير .
ولكن فيم أتحدث اليك يا حميدة البائسة ! إنى لأقص عليك سخفاً لا يغنى
ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوزه إلى قلبك
الحزين . وما أنت وهذا الكلام ! وما أنا والتحدث به اليك ! وإنما أريد أن

أرسل اليك كتاباً كله حب وكله بر وكله حنان . فأين هذا مما أخذت أهذى به وأخوض فيه ! . أفكُتب علينا ألا تلتقى نفسانا فيطول بينهما اللقاء ؟ أفكُتب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذى لا يخفى معه من أحدنا شىء على صاحبه لا من حسه حين يحس ، ولا من شعوره حين يشعر ، ولا من تفكيره حين يفكر ؟ ! أفكتب علينا أن تلتقى أجسامنا وألا تلتقى نفوسنا إلا لحظات قصاراً فى نظرات قصار سراع كأنما نختلسها اختلاساً ؟ ! ولكن أتفهمين عنى ما أقول ؟ أتحسين ما أحس ؟ أتجدين ما أجد ؟ إنى لم أتعود أن أتحدث اليك مثل هذا الحديث . وإنما تعودت ألا أتحدث اليك إلا قليلا ، وألا أتحدث إليك إلا فى أيسر الأشياء وأدناها إلى السخف وأشدها اتصالا بشؤون حياتنا المادية مما يمس شؤون البيت . ما أذكر أنى تحدثت اليك فى الحب ، وما أعلم أنك تحدثت إلىّ فيه . كنت أرى أنك لن تفهمى عنى إذا تحدثت اليك بما أجد . وكان الحياء يمنعك من أن تتحدثى الىّ ببعض ما تجدين . وكنا نكتفى بالنظرات الحلوة القصيرة يملؤها الحنان . وكنا نكتفى بحلاوة الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث فى أى شأن من الشئون ليشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والإخلاص . وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة فى شؤونها المادية ، وكانت رمزاً أو شيئاً أشد غموضاً من الرمز فيما يمس شؤون القلب والنفس والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئاً من حياة القلب والنفس والضمير ؛ فلم نفكر قط فى تحليل ما بيننا من صلة أو فى تأويله وتعليله . ومتى كنا نستطيع أن نفكر فى ذلك وقد كنت مشغولا عنك

بالعمل والكتاب ، وكنت مشغولة عنى بالبيت ، وكنا لا نلتقى إلا لنتحدث فيا يتحدث فيه الأزواج من الأمور غير ذات الخطر التى لا تمس قلباً ولا نفساً ولا ضميراً . ماذا أقول ! وإلى من أكتب ؟ وإلى من أسوق هذا الحديث ؟ أترين أنك تفهمين عنى هذا الكلام ؟ ما أظن ! فكيف تفهمينه وأنت تسمعينه لأول مرة ! ومع ذلك فإني شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسى بهذا الأسلوب العسير الدقيق ، وعلى هذا النحو الذى لا ينقصه العوج ولا الالتواء .

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر هذا المعنى الذى أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب ؛ فقد كنت أريد أن أنبئك بأنى لم أستطع أن أستقر فى بيتنا بعد فراقك ؛ لأنى وجدت فيه وحشة نفتنى عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلا ، فهمت فى المدينة وتلمست السلوة عند الأصدقاء بقية النهار وطول الليل . ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك فى هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب فى الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء .

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر هذا الكتاب ؛ فهو يسير سهل كما ترين ، ولكنى مع ذلك لم أكد آخذ فيه حتى تعقّد والتوى بى أو التوى علىّ ، ودفعنى إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بى عن الغاية ولم أخلص منها ، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء . وكذلك أنا فى حياتى الشاعرة مضطرب ملتو كثير الاستطراد ، لا أفكر فى شىء إلا أثار لى أشياء ، ولا آخذ فى مذهب إلا

التوى بى إلى مذاهب تشق شقاً من نواحيه ؛ فأنا أيامن مرة وأياسر أخرى، وربما نسيت الطريق التى أخذت فيها أول الأمر ، ومضيت فى الاستطراد إلى غير أمد .

وكذلك أنا فى حياتى العملية، لا آتى أمراً إلا أثار لى أموراً وفتح لى أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً . ولعلى ألج واحداً منها فلا أخرج منه ، وإنما تفتح لى أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين أفكر، وأنا مضطرب حين أعمل ، وأنا مضطرب حين أقول . والغريب أنى أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف لحياتى وحدة وأن أتبين لها طريقاً متشابهة تنتهى أو تريد أن تنتهى إلى غاية مقاربة . ماذا أقول ! هأنذا قد بعدت عنك وعما أكتب إليك من أجله ، وفرغت لنفسى أو شغلت بها ؛ فأنا أدرسها وأسرف فى درسها وتحليلها ، وإن كنت أعلم أن لدى من الوقت ما يكفى للنظر فى المرآة ولأرى هذه النفس التى أحب وأكره أن أراها . وليس لدىّ من الوقت ما يسمح لى بالتحدث إليك فيما أريد إلا القليل . ومن يدرى ! لعل نفسى غير الشاعرة التى تجور بى عن القصد وتنحرف بى عن الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضى إلى الغاية التى من أجلها أكتب ، تشفق عليك وتشفق علىّ أيضاً . فإن الأمر الذى أريد أن أتحدث إليك فيه ثقيل خطير، ما أحسب أنك تقوين على استماع حديثى فيه ، وما أشك فى أنى محتاج إلى شىء كثير جداً من الشجاعة والجلد لأمضى فى هذا الحديث . وكذلك ترفق نفسى غير الشاعرة بنفسى الشاعرة، وتحميها من بعض

ما تكره ، وتريد أن تؤخرعنها العذاب . فما أشد سلطان الأثرة علينا ! وما أشد استئثار الضعف بنفوسنا ! وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولا سيما حين نزعم أننا أقوياء ، وحين نريد أن نظهر الناس على أننا أقوياء ! ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل ، ولما دفعت إلى هذا القول الملتوى حين أحاول أن أنبئك بنبأ مهما يكن ثقيلا خطيراً فهو واضح لا غموض فيه ، ولكن أستحى منك وأستحى من نفسى وأشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام . فلأتشجع إذاً ولتتشجعى أنت أيضاً ، ولأقل إذاً ولتسمعى أنت ما أريد أن أقول ! إن القلم ليضطرب فى يدى ، وإن يدى لتجمد فلا تكاد تتحرك ، وإنى لمحتاج إلى أن أكف عن الكتابة حيناً لأسترد القوة والجرأة والنشاط . وهأنذا أستأنف الكتابة وأدافع نفسى دفاعاً شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد ، ولأكرهها على المضى فيما تلتمس الفراغ منه ، ولأحملها على أن تقسو عليك وعلىّ فتلقى إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقى بعد اليوم .

أف ! لقد ألقيت العبء وتخففت من الثقل ، واستطعت أن أتنفس فى غير حرج ولا ضيق ، وأحسست كأنى أصبحت طليقاً حراً وقد كنت مقيداً مغلولا ؛ لا لشىء إلا لأنى ألقيت إليك هذا النبأ بعد أن كنت أتحرج من إلقائه ، وأصبحت ملزماً أن أعلله لك وأن أفسره وأن أرد عن نفسى ما سيثور فى قلبك من الشبهات . وأنا أعلم أنك لن تصدقينى ولن تؤمنى لى ولن تقبلى شيئاً مما أقول . ولكنى أقسم مع ذلك ما طلقتك عن قلى ولا

فارقتك عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك . و إنى أقسم ما أحببتك قط كما أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما أوثرك الآن ، وما عرفت سلطانك على ويدك عندى كما عرفتهما الآن . بل أقسم إنى لأحس كأنما أشطر قلبى شطرين ، فأحفظ شطره فى صدرى وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد فى أعماق الريف حيث لا يتاح لى أن ألقاه . بل أقسم ما طلقتك إلا حباً فيك و إيثاراً لك وضناً بك على ما أكره . ولأكن صادقاً كل الصدق ؛ فإن الضعف والعجز والخور ، كل هذه العيوب هى التى تدفعنى إلى أن أفارقك أشد ما أكون لك حبًا وأعظم ما أكون عليك حرصاً . لم أستطع أن أوثرك على أوربا فأبقى معك ، ولم أستطع أن أطمئن إلى أنى سأكون وفيًا إذا عبرت البحر فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج . ولست أريد هذا الوفاء الخلقى الذى يتصل بالنفس ، فأنا واثق بأنى قادر عليه ، بل أنا واثق بأنه سيعذبنى وسيكلفنى آلاماً وأسقاماً . إنما أريد الوفاء الكامل الشامل الذى يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم أيضاً . أريد هذا الوفاء الذى لا يبيح شركة ولا توهماً للشركة ولا تفكيراً فيها . وأنا آسف أشد الأسف محزون أشد الحزن ، لأنى أعلم أنى سأتعرض للفتنة إذا عبرت البحر ، وأن بعض اللحظ سيمس قلبى ، وأن بعض الجمال سيستهوينى ، وأن بعض الشر سيدفعنى إلى شىء من الغى . وما أحب أن أعرّض حبك ، أستغفر الله ، بل ما أحب أن أعرّض زواجنا لهذا الإثم والفساد . لا أستطيع أن أخفى عليك ما قد أقترف من إثم ؛ لأنى لم أعودك ولم أعوّد نفسى الكذب . ولا أستطيع أن أعترف لك بما قد أقترف من إثم ؛ لأنى إن فعلت آذيتك فى غير حق

وفى غير جدوى ، وعرّضت ما بيننا للفساد . وأنا إن كذبت عليك أهنت نفسى بالكذب . وإن اعترفت لك أهنت نفسى بالاعتراف . وإذاً فمالى لا أستقبل الحياة شجاعا جريئاً مستمتعاً بلذاتها محتملا لتبعاتها !! كم كنت أريد أن أكون قوياً قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الإثم ، وأحتفظ بقلبى طاهراً نقياً ، وبجسمى عفيفاً نظيفاً ، وأردهما اليك بعد العودة كما ارتحلت بهما عنك أول الرحيل ، ولكنى عاجز عن ذلك ، أو عاجز عن الاطمئنان الى ذلك. والغريب أن من الممكن أن أعبر بحر الغواية ولا أغوى ، وأن أقضى أعوام الغواية نقياً طاهر القلب ، وأن أكون قد شققت على نفسى بهذا الحرج وحمّلتها ما كنت أستطيع ألا أحمّلها . هذا ممكن ، ولعله أن يكون. ولكنى لا أكتفى بالممكن ولا أطمئن إلى الظن ، إنما أريد الثقة ولا سبيل إليها ، وأطمع فى اليقين ولا أمل فيه. ولهذا أتكلف ما أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم.

أترين أنك فهمت عنى ؟ ما أظن ! ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟ أترين أنك صدقتنى ؟ ما أظن ! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟ يا للحزن ويا للأسى ! لمن أكتب هذا الكتاب وإلى من أسوق هذا الحديث! إنك إن قرأته فلن تفهميه ، وإن فهمته فلن تقبليه ، فكيف وأنت لن تقرئيه! إنى لغافل ذاهل ، إنى لمدلّه مجنون . لقد أنسيت أنك لا تقرئين ولا تكتبين فمن الذى سيقرأ عليك هذا الكتاب ويفسره لك من أهل الريف ؟ . كلا لن أتمه ولن أرسله إليك ، ولن تعلمى من أمرى إلا أنى رجل قاس غليظ مسرف فى كفر النعمة وجحود الجميل ! متتبع للأهواء والشهوات ، لا أتحرج

من شيء . ولا أعرف لجموح نفسي غاية تنتهي إليها أو حدًّا تقف عنده . سيسقط النبأ في أسرتنا كما تسقط الصاعقة ، وسيلقونه إليك في عنف أو في لين ، وستجزعين وتظهرين التجلد ، وسيبكي قلبك وتتكلف عيناك الجمود . ثم ستمرّ الأيام ، وستحرصين على أن يصل إليك بعض أنبائي دون أن يُعْرَف منك هذا الحرص . ثم سيأتي الخاطبون . كلا ! لا أريد أن أمضي إلى أبعد من هذا الحد في التفكير ؛ فما أرى أني أقوى على هذا المضي . لقد أبطأ عليَّ صاحبي ، وكلفني انتظاراً طويلا . ليته يقبل فيخرجني من هذا العناء .

قرأ غلامي الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف عني صاحبي . فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له ، وسألت نفسي كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه !

١٢

يوليو في . . . . .

لم تفارقني صورتها بعدُ أيها الصديق العزيز ، ومع ذلك فقد مضت أيام وأيام منذ انصرف بها القطار إلى قريتها في الريف ، وحدثت بعد ذلك أحداث واختلفت شؤون ، فلقيت من لقيت وتحدثت إلى من تحدثت إليه ، وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير ، ثم كانت الرحلة وهبط بي القطار إلى البحر ومضت بي السفينة إلى ماوراء البحر ، وهأنذا أكتب إليك في غرفة من غرفاتها . وشهد الله ما فارقتني صورتها أثناء هذا كله في يقظة ولا في نوم .

ولقد سألت نفسى منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه للصديق . وسألت نفسى حين عرفتك فأحببتك ، وحين فارقتك فجزعت لفراقك ، عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك ، وعرضت على نفسى أجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت أطمئن إلى بعضها حيناً ثم أدعه ، وكنت أنصرف عن بعضها الآخر حيناً ثم أعود إليه . ولكن الحياة نفسها قد أجابت على هذا السؤال جواباً ما أحسب أنى سأتحول عنه . فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق وخير ما أتمناه للعدو إن طابت نفسى وأحببت للعدو خيراً، هو أن يجنبك الله أسباب الندم ، ويعصمك من الاضطرار إليه والإيغال فيه . فلست أعرف ألماً أشد ولا حزناً ألذع ولا عذاباً أمض ولا شقاء مفسداً للحياة كهذا الذى يثيره الندم فى نفس الرجل الذى يقدر من الأمر ما يأتى وما يدع .

وإنى لأقول لك هذا عن علم، وأتحدث به إليك عن تجربة . وأى تجربة ! تجربة وددت لو أنى تحملت كل ما ذقت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع إليها . فيالها من منغص ماكر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل أمل ، ويأخذ عليك كل طريق، ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه ، فإذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهى بك إلى اليأس المهلك، جلا عنك غمراته ، ونفس عن قلبك وعقلك بعض الشىء ، وخيّل إليك أنك قد رُدِدت إلى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق . ولكنك

لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن إلى بعض الأمن ، حتى يمسك هذا الشيطان الخفى مساً رفيقاً ولكنه عنيف ، ليناً ولكنه يبلغ غاية القسوة . يَخِز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلا خفيفاً لا يكاد يحس، ولكنه يذكرك بمكانه وينبهك إلى أن فى هذا الهواء الطلق راحة لجسمك إن تنسمته مطمئناً فارغ البال . ولكن يجب عليك ألا تطمئن وألا يفرغ بالك؛ فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً ، وإنه دانٍ منك كل الدنو وإن حسبته نائياً عنك كل النأى . فإن كنت فى شك من ذلك فانظر واشعر وسَلْ نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذى تجده ، ما هو أو من أين يأتيك ؟ فستعلم أنه مس هذا الشيطان وألم هذا الندم الذى إن رقّه عليك فإنه لم ينسك ، ولا ينبغى له ولا ينبغى لك أن تظن أنه سينساك .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة فى الحديث مع من يحسن معه الحديث، وفى التفكير فيما يحسن فيه التفكير، ولكنه كفيل أن ينغص عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيقة الضئيلة التى يمسك بها فى ناحية من نفسك ، فاذا أنت تقطع الحديث فجأة وتنصرف عن التفكير فجأة ، كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع فى قراءة الكتاب القيم الذى يغذّى عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وأدب وفن، والذى تود لو تفنى فيه فناء، وتمتزج به امتزاجا وتنسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان ، ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا ،

وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التى يمس بها نفسك فى ناحية من نواحيها ، فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب ، وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع إلى السماء ، وإذا أنت واجم قد أُنسيت ما كنت فيه ، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معا ، فيه انصراف عن كل شىء ، وفيه شعور بهذا الشيطان الذى يفسد عليك كل شىء . وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكراً وأدق حيلة؛ فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقيه من يدك ولا يحوّل عنه عينيك ، ولكنه يسايرك فى القراءة كأنه الرفيق ، ويلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ ، فإذا هى تختلط بما تقرأ ، وإذا هى تحوّل نفسك عما فى الكتاب ، وإذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شىء مما تقرؤه إلى نفسك .

وقد يغلو هذا الشيطان فى المكر بك والكيد لك ، فلا يسايرك فى القراءة ، ولا يلقى فى نفسك كلمات ولا خواطر ، ولا يصرفك عن الكتاب ، وإنما يصرف الكتاب عنك صرفاً ، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال ، تراها وأنت كاره لرؤيتها ، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد إلى ذلك سبيلا . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك . والكلمات أمام عينيك ولكنها تفر منك . هى تفر وأنت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقى بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان فلا يتكلف فى تعذيبك جهداً ولا عناء ، وإنما يداعبك فى رفق ويلاعبك فى استهزاء .

فأنت فى حديثك أو فى تفكيرك أو فى قراءتك ، وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تتراءى لك ، فتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ ، ثم لا تلبث أن تنجلى عنك فى سرعة البرق الخاطف ، فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة ، وسانحة بارحة ، وملمة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ، ويشق عليك ولم تدركه المشقة ، ويؤنسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ، ينظر إليك فى احتقار وازدراء ، وفى سخرية واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قريتها فى الريف . ومازلت أجده الآن والسفينة تمضى بى إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنوناً من السير ، تجاهده جهاداً عنيفاً حين يهيج وتضطرب به أمواجه وتعصف به الريح ، وتداعبه دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على على سطحه النسيم . وكم منيت نفسى منذ أخذت أتهيأ لهذه الرحلة أن أجد هذه اللذات المتباينة التى يجدها المسافرون فيما يكون بين السفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووئام . ولكن هذا الشيطان قد حال بينى وبين ما كنت أتمنى من ذلك ، فأفسده علىّ إفساداً ونغصه علىّ تنغيصاً . ولو أنه ألقى بينى وبين ما أريد من ذلك حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً لهان الأمر ولكان اليأس منه مريحاً ، ولكنه يشرف بى على اللذة إشرافاً ويمعن بى فيها إمعاناً ، ثم يقطع أسبابها قطعاً ، ويصدنى عنها أو يصدها عنى

أشد ما أكون كلفاً بها وإندفاعاً إليها واستعداداً لإجتناء ما هيأت لى من ثمرات .

جنبك الله الندم أيها الصديق ، وعصمك من أثقاله فإنها لا تحتمل ، ومن آلامه فإنها لا تطاق .

ولست مع هذا كله مبغضاً لشيطان الندم ، هذا الذى يعذبنى ، ولا منكراً عليه ؛ فأنا أعطى الحق من نفسى وأقبل راضياً أو كارها ما ليس من قبوله بد . فأنا قد اقترفت الإثم ، ولا بد من أن أحتمل أثقاله وأتجرع آلامه . والإثم عندى شجرة لا بد من أن تؤتى ثمرها إذا صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار . وإنما تصادف الخصب وأسباب النمو والإثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دقيقة الحس قوية الشعور . والندم عندى آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات السمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنيات ، ودليل من أدلة خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه . وإنى لأبغض النفوس المجدبة التى لا تعرف ألماً ولا ندماً ، والتى تموت فيها أشجار الآثام والخطايا ، كما يموت النبات فى الصحراء المحرقة المهلكة .

وإنى لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيئ الردىء ، التى تغرس فيها أشجار الخطيئة والإثم ، فلا تموت ولا تجف أعوادها ، وإنما تثمر خطايا وآثاما .

أترى أيها الصديق أنى مغرور مسرف فى الغرور ! أتعزّى عن الألم والندم

بتزكية نفسى، وأكاد لا أكره ما أقترف من الآثام لأنه يشعرنى بأنى كريم النفس نبيل الطبع نقى الضمير! ولكن لا تنكر علىّ هذا الغرور، ولا تلمنى فيما ألتمس لنفسى البائسة من ضروب التسلية وألوان العزاء. فلولا هذا الغرور لأهلكنى ما أجد من الحزن، ولقضى علىّ ما أحس من الندم، ولدفعت إلى اليأس المهلك دفعاً.

وإنى لأعجب كيف انجلت عنى غمرة الأمل وصُرِفتُ صرفاً عن هذه الخيالات الحلوة التى كنت أخلقها لنفسى خلقاً، وأستعين بها على ما كنت مقدماً عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة فى فرنسا، وما تدخر لى من لذات مختلفة لا تفنى. فأنا أحاول الآن أن أتصور هذا البلد الذى أنا مقبل عليه، فلا أرى الا هذا البلد الذى أنا منصرف عنه.

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى الا جامعتكم المصرية. وأحاول أن أتمثل رفاقى من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ. ثم أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا القاهرة. وأحاول آخر الأمر أن أضلل نفسى وأعللها وأمنيها الأمانى الآثمة، أحاول أن أتمثل المرأة الباريسية فلا أرى إلا حميدة قائمة أمامى كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل فى بكاء متصل وصمت عميق.

مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن أنظر إلى وراء. فلا تلمنى إذاً حين أعجز عن أن أخرج من نفسى، وعن أن ألتمس العزاء إلا فيها؛ فأنا أتلهى بهذا الغرور عن هذه الأهوال المنكرة التى تأخذنى من كل مكان

وتسعى إلىَّ من كل صوب . ومالى لا آلم ولا أندم ولا أتجشم من ذلك أهوالا وقد اقترفت إثماً عظيماً حقاً ! لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصور لك من هذا الإثم : إثم الطلاق ، إلا أيسره وأهونه . لم أصور إلا مافيه من ظلم البرىء والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء ، وقد لقيت منك مع ذلك لوماً شديداً و إنكاراً عنيفاً ، ونبواً كاد يفسد ما بيننا من الود، فكيف لو صورت لك حقيقة هذا الإثم الذى اقترفته ! وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذى أخفيته عليك ! .

لقد أفلت منك أيها الصديق، ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت الأسباب بين حميدة و بينى ، و بعدت بى الدار ، فلا أمل الآن فى إصلاح ما فسد ، ولا خوف الآن من أن تصدنى عن الرحيل . الآن أستطيع أن أظهرك على نفسى كلها .. والآن أستطيع أن أنبئك بإثمى كله ، وأنا أعلم أنك ستحتقرنى وستزدرينى . ومايعنينى من ذلك وأنا أحتقر نفسى وأزدريها ! فان يصرفنى احتقارك إياى وازدراؤك لى ، ولن يصرفنى احتقارى لنفسى و ازدرائى إياها عن أن أتمثل هذا الإثم القبيح وأملأ به خلوتى ، وأتغنى بآلامه فيما بينى و بين نفسى غناء قبيحاً منكراً بشعاً أكرهه أشد الكره ولكن أمعن فيه أشد الإمعان .

لن يصرفنى ازدراؤك لى وازدرائى لنفسى عن هذا كله، وعن أن أسجل نغمات هذا الغناء البشع فى هذا الكتاب الذى أرسله اليك .

لست ظالماً فحسب أيها الصديق ، ولكنى كافر للنعمة منكر للجميل .

فلم تكن حميدة زوجى فحسب ، ولكنها كانت منعمة علىّ منقذة لى . رضيت بى بعد أن نبذنى غيرها ، ومنحتنى ودها وحبها بعد أن أعلن غيرها أنى لست أهلا لود ولا حب .

إن لهذا قصة لم أنسها ولن أنساها ، لأنها مزّقت نفسى تمزيقاً ، وعذّبت قلبى تعذيباً ، وآذتنى فى أعز شىء علىّ وهو الغرور والاعتداد بالنفس .

لقد كان أبواى كغيرهما من أهل الريف يُعِدّاننى لعروس غير حميدة . وكان أهل هذه العروس يُعِدّون ابنتهم لى منذ نشأنا صبيين . وكانت الفتاة ابنة عمى ، ولم تكن جميلة ولا وسيمة ، ولكنها على ذلك كانت محببة إلى أثيرة عندى ، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث الزواج .

ولكنك لم تر وجهى ولا شكلى أيها الصديق . وأكبر الظن أنك عرفت من صوتى أنى قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن أروق العذارى ، وأرضى أهواء النساء . ولم أكن أرى ذلك فى نفسى ولا أعترف به عليها . ومتى رأيت رجلا قبيحاً دميما يؤمن بأنه قبيح دميم ! ولكن فهيمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه أشد النفور ، وكانت تكره أن يتحدث اليها أهلها وأترابها بأمر الزواج ، ولكنها لم تكن تظهر الكره وتعلن الإنكار ، حتى إذا جد الجد وتقدمت بها وبى السن ، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون فى أمر الخِطبة ، جهرت بالرفض جهراً وأعلنت الإباء إعلاناً ، وخرجت فى ذلك عما هو مألوف من أمثالها من فتيات الأسر فى الريف ، فنبت على أمها تبوًا وامتنعت على أبيها امتناعاً ، وأعلنت أنها تؤثر الموت على أن تكون زوجاً لهذا الشاب الدميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى وأثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور . ثم تصور أن حميدة كانت أبرع من ابنة عمى جمالا وأكثر منها مالا ، وأذكى منها قلباً وأحسن منها مستقبلا ، وأنها مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته وأظهرت إنكارها ، وتعمدت أن يصل حديث هذا الإنكار إلى أهلى ثم الىّ ، وكان هذا الإنكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الخِطْبة ثم وسيلة الزواج . وما زالت فيهمة تنتظر الزوج الى الآن ، ولكن حميدة قد طلقت. فانظر الى الإحسان كيف يكافأ بالإساءة ، وإلى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق ! ومع ذلك فانى لأنظر الآن فى المرآة أمامى فأستكشف فى وجهى وخَلْقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر وعذر لابنة عمى ، وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف أنى أسافر على سفينة انجليزية؟ فقد تهيأت لهذه السفينة وأنبأنى المنبئون بأن المسافرين على السفن الانجليزية إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصا لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذه المترفون . فلما أقلعت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت ما يتصل به من زينة ، وكانت صورة حميدة لا تفارقنى ، وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين إلى حين. فلما تهيأت للخروج من غرفتى سمعت فهيمة تنكر قبحى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير إلىّ . هنالك نظرت فى المرآة فرأيت ، ثم استحييت

ثم بكيت ، ثم نزعت هذا اللباس نزعا ، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء . ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بأن آكل فى غرفتى . وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء ؛ فما أرى منذ الآن إلا أنهن جميعاً فهيمة .

أترى الى أى حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً ، ولن تعرف حميدة أنى أجد من الندم على فراقها ما يفسد علىّ حياتى إفساداً ، ويوشك أن ينتهى بى إلى شر ما ينتهى اليه الأحياء .

ليتنى سمعت لك ! وليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر! فما أظن الا أنى مقدم على سراب أحسبه ماء ، حتى إذا بلغته لم أجده شيئاً .

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق ، ولابدلك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على اكثر ما نأتى من الأمر ، وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله . فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمرى إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه . وكنت أظن أن أكثر من عرفتهم فى القاهرة وعرفونى يجهلون أمر زواجى جهلا تامًا . وكنت واثقاً بأنى أستطيع أن أكذب على الجامعة إن أردت ، وأن أزعم لها أنى أعزب وأن أمسك علىّ زوجى وأسافر إلى أوربا لا أصطحبها . وكنت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب الجامعة . ولم يكن يدفعنى إلى هذا إلا حب الصدق وإيثار الخلق والضن بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفى . وكنت أحمد من

نفسى هذا الإقدام على التضحية ، وهذا النصح للجامعة ، وهذا الإلحاح فى أن أكون صادقاً معها فى السر والعلانية معاً .

وكثيراً ما وجدت فى هـذه التضحية التى كنت أحبها وأرضى عنها مظهراً من مظاهر الغرور ، ومصدراً من مصادر العجب والتيه والإكبار للنفس . وكنت أقول لنفسى إذا خلوت إليها : ليس كل الناس قادراً على أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد . فأنا إذاً شخص نادر وفرد ممتاز . ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخُلقى ، كما أنها ستفخر بعد قليل بجدى واجتهادى وكفايتى فى البحث وقدرتى على الدرس والتحصيل .

وكان هذا الخاطر الجميل يملؤنى ثقة بنفسى وإكباراً لها ورضا عنها . ولعل ذلك كان يظهر فيما كنت آتى من حركة وما كنت ألقى من جمل . بل لعل هذا كان يظهر فيما كان وجهى يأخذ أحياناً من الصور والأشكال. ولكن لا تسل عما أدركنى من الدهش ، وما أصابنى من خيبة الأمل ، وما ملأ قلبى ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعانى سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائى ، ولم يتكلف الأنس بمقدمى ، كما كان قد تعود من قبل ، وإنما لقينى فاتراً وحدثنى بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما أنكرت ، ثم لم يلبث أن ألقى علىّ حديثه قصيراً متقطعاً سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضاً ، وقد اتخذ صورة الأستاذ ولهجته ، وصوت الواعظ الغالى فى التأنيب ، فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة ، وما ينبغى له أن يغش وهو الأسوة

وقد كانت الجامعة مخدوعة لى . فالآن وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فىّ زهداً ، وأن تنصرف عنى انصرافاً . و بين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون ان يشغلوا مكانى فى البعثة ، وأن يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين ، ومخلصين غير متورطين فى الغش ولا متكلفين للخداع . والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل عن إرسال البعوث ، وأن تغلق أبوابها إغلاقاً فى سبيل الطلاب الذين يختلفون إليها على أن تهيئ للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والغش ، وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضقت بهذا الواعظ الثرثار ، وتعجلته إتمام الحديث والانتهاء إلى ما يريد . فلم يتردد فى أن يلقى إلىّ ماعنده إلقاء فيه كثيرمن الازدراء . قال : زعموا أنك متزوج ياسيدى ، وقد زعمت لنا أنك حرٌّ طليق .

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق ، وما أدرى أتغفر لى ؟ فقد أسأت بك الظن واتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصاً حسن النية تريد أن تحول بينى و بين الظلم ، كما أقدمت أنا على تطليق حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الخيانة والإثم .

نعم ! أسأت بك الظن واتهمتك، ورأيت مابيننا من الصلات وقد تصرم وتقطعت أسبابه ، وأحسست شيئاً من الحزن لكذب ظنى بك وخيبة أملى فيك . وكان هذا كله سريعاً مسرفاً فى الإسراع لم أكد أتنبه إليه ،

ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن شيئاً غيره وغير حديثه كان يشغلنى . فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف ؟ ومن ألقى إليك هذا الهذيان ؟ وكيف تسمع الجامعة لكل ما يلقى إليها من القول ! وكيف تصدق كل ما يرفع إليها من الحديث ! وما ينبغى لك أن تلومنى هذا اللوم ، وتؤنبنى هذا التأنيب قبل أن تتحقق أنك تتهمنى بما لا أستطيع له دفعاً ، وتأخذنى بما لا أجد منه مخرجا !

قال الرجل : مهلاً يا سيدى ، فليس يغنى عنك ما أنت فيه منذ الآن من التجاء إلى الجدال وشغف بالمراء ؛ فقد ألقى الينا أنك متزوج ، ثم ألقى إلينا اسم الأسرة التى أنت مصهر اليها ، فلم نأخذبالظنة ولم نطمئن إلى الريبة، وإنما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى تبين لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلا . وما دعوناك اليوم إلا لنقطع ما بينك و بيننا من صلة ، فنرد إليك ما أخذنا منك ، ونسترد ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب إلىّ عقلى كله ، وحرصى على البعثة : قد كان ذلك ممكناً منذ أيام ، أما الآن فلا . ثم قدمت إليه صك الطلاق . فلم يكد ينظر فيه حتى تغيرت حاله معى تغيراً تامًّا ، و إذا هو يصافحنى مكبراً لى معجباً بى . ألم أقدم على عمل خطير ! . ثم تبسط معى فى الحديث وقد ضم الصك الذى دفعته إليه إلى ما ينبغى أن يحفظ من أوراق عنده ، وما زلت أتلطف له وأمكر به ، حتى أطلعنى على ذلك الكتاب الذى ارتفع اليه بالنميمة وأنبأه بزواجى . فقرأت و ياشرّ ما قرأت ! وعلمت و ياشرّ ما علمت ! علمت أن

صاحب هذا الكتاب صديق لى متصل بى ، يتكلف المودة ويظهر النصيحة والإخلاص ، ولكنى علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب ولا مقترف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضياً ساخطاً ومسروراً محزوناً . راضياً لأن البعثة لم تفلت منى ، وراضياً لأنك أنت لست الواشى بى . وساخطاً لما انطوت عليه جُنوب الناس من المكر والخداع ، ومن الكذب والنفاق ، ومن الحسد الذى يفسد عليهم كل شىء .

فلم يكن لهذا الصديق الذى وشى بى طمع فى البعثة ولا طموح اليها وإنما هو الحسد وحده . رأى أنى سأسافر إلى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر ، ورأى أن حالى قد تتغير وأن حياتى قد تصلح ، وأنى قد أرقّى إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو إليها ، فكرِه ذلك وضاق به ، ثم جد فى أن يحول بينى و بين ذلك ، وأن يمسكنى فى المنزلة التى أمسكته فيها الظروف ، فأبقى مثله خاملاً متواضعاً محدود الأفق من البيت إلى الديوان ، ومن الديوان إلى البيت ، والقهوة بين ذلك أحياناً .

نعم أيها الصديق ! خرجت راضياً وساخطاً ، وأنا لا أفكر حين كنت أحس الرضا أو أجد السخط إلا فى شىء واحد ، وهو أن كيداً كان يكاد فخلصت منه ، وأن مكراً كان يمكر بى فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم فى نحورهم . ثم هبط بى القطار إلى البحر ، وأخذت السفينة تمضى بى إلى ما وراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمنى وتلح علىّ ، وأخذ الندم

يثير فى نفسى من الخواطر ما يثير ، وإذا أنا الآن أسأل نفسى عن هذه الوشاية التى أنكرتها : ألم تكن خيراً قد صُرِف عنى وحيل بينى و بين الانتفاع به ؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بينى و بين البعثة لكان هذا الإخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب ، ولكان نذيراً بما كان ينتظرنى من الشر إن تممت على ما بدأت من الظلم ، ولكان خليقاً أن يردنى إلى حميدة أو أن يُردّ حميدة إلىّ . ولكن الله لم يرِدْ إلا أن يقدّم بين يدى هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرنى فيها من الآلام ، وطليعة لما ينتظرنى وراء البحر من الشر .

وصدِّقنى أيها الأخ العزيز إنى لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجلاً شديد التشاؤم ، لا أنتظر خيراً ولا نجحا ، وإنما أنتظر شرًّا كثيراً و إخفاقاً شنيعاً . ولو طاوعت نفسى لما استقررت فى مرسيليا إلا ريثما آخذ السفينة التى تردنى إلى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ؟ وماذا أقول لنفسى؟ وكيف ألقى غيرك من الأصـدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين ؟ وماذا أقول لأهلى وماذا أقول لحميدة ؟ أأمضى فى فراقها ؟ ولمـاذا وأنا لم أفارقها عن قلى ولا عن بغض ؟ أم أعود إليها نادماً بائساً معتذراً مستغفراً ؟ ولـكن أتسمع لى ؟ أتعطف علىّ ؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذى هو بالهذيان أشبه منه بالجد ؟ إن السفينة لتمضى أمامها لا تلوى على شىء ، ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا . ولو أردت أن أقفها لما بلغت من ذلك شيئا مهما يكن إلحاحى وصياحى ، ومهما أتخذ من وسيلة عند القبطان . و إنما حياتنا كهذه السفينة

تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد . ومهما نلح ، ومهما نصح ، ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها إلى وراء ، ولن نتقى الانتهاء إلى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء .

فلأمض إذاً إلى حيث تريد السفينة أن تنتهى بى . ومن يدرى ! لعلى أعود إليك بعد حين ولم أر باريس ، ولم أختلف إلى السربون ، ولم أشهد أندية اللهو والمتاع . ومن يدرى ! لعلى لا أعود إليك حتى آخذ من هذا كله بحظ . وكل ما أستطيع أن أقطع به الآن هو أن هذه السفينة التى تعبر بى بحر الروم ، ستوفى بى من بعد بحر إلى بحر ، كما يقول مسلم بن الوليد . ولكن البحر الذى ستوفى بى إليه ليس هذا ولا ذاك من أولئك الأجواد الذين كانوا يُغنون الشعراء ، وإنما هو بحر آخر عريض لا حد لعرضه ، عميق لا آخر لعمقه . هو بحر هذه الحياة الأوربية المملوءة باللذة والألم ، المفعمة بالخير والشر . فليت شعرى أأرسب فيه أم أطفو عليه ؟

الآن أحس أنى قد أطلت عليك . وإنما يذكرنى بك ويثير فى نفسى الإشفاق عليك من الإطالة هذه الحركات التى أسمعها تكثر من حولى فى الغرف المجاورة وفى الطريق أمام هذه الغرف ؛ فقد فرغ السَّفْر من لهوهم ورقصهم وعادوا إلى غرفهم يقضون فيها ما بقى لهم من الليل .

وداعاً يملؤه الحب والود والحزن أيها الصديق ! فما أدرى ! لعلى لا أكتب إليك بعد هذا الكتاب .

١٣

أغسطس فى . . .

أحسست كأنى أسمع صوتاً ينادينى من بعيد، وكأنى أدنو من هذا الصوت ، أو كأنه يدنو منى شيئاً فشيئاً . واستمر هذا الحس لحظة لست أدرى أطالت أم قصرت ، ولكنى وجدتنى قد قربت من الصوت أو قد قرب الصوت منى ، فاذا هو بين يدى ، وإذا أنا أسمع طَرْقاً على الباب ، وإذا أنا أصيح دهشاً أو كالدهش بلغتى العربية الشعبية: «مين؟» وإذا الباب يفتح ، وإذا شخص يدخل خفيفاً رشيقاً سريع الحركة ، سريع الكلام ، وإذا هو يقول فى صوت امرأة : لقد أشفقت عليك ، ولقد حسبت أنك لا تفيق ، وإذا هو يسرع إلى النافذة فيجذب عنها الأستار ويفتحها ويأذن للشمس بالدخول . وأنا دهش ذاهل ، أدعو نفسى وأجمعها فتجتمع لى ، وأنظر وأشعر فاذا أنا فى غرفة الفندق التى أويت إليها أمس حين تقدَّم الليل . وإذا الخادم قد أقبلت تحمل إلىّ طعام الإفطار ، وإذا النهار قد تقدَّم حتى بلغ النصف أو كاد يبلغه ، وإذا أنا أثوب إلى نفسى وأذكر من أمرى ما كان قد ذاده النوم عنى ، فأعلم أنى قد بلغت مرسيليا أثناء الليل أمس ، وأنى كنت متعباً مكدوداً لكثرة ما أرِقت ، وأنى ذهبت إلى أول فندق دلنى عليه ذلك الرجل الذى حمل أمتعتى ووضعها ووضعنى معها فى عربة وأخذ منى ما أعطيته من نقد وقال للسائق إلى فندق چنيف . وقد

بلغت الفندق بعد الساعة العاشرة ، فلم أقبل طعاماً ولا شرابا ، ولم أزد على أن أجبت على ما وجّه إلىّ من أسئلة لم يكن منها بد ، وطلبت غرفة آوى إليها ، وأنبأت أنى سأسافر من الغد إلى باريس . ثم لم أكد أبلغ الغرفة حتى خرجت من ثياب ودخلت فى ثياب ، وأويت إلى السرير مسرعاً أتمنى لقاء النوم وأشفق كل الإشفاق ألا ألقاه . ولكنى لم أكد أنزلق فى هذا السرير حتى أحسست راحة وهدوءاً ودعة لم أعهدها قط . فأين هذا السرير الوثير الذى أُتقنت تسويته مما ألفت فى دارنا فى ريف مصر ، أو فى بيتى فى القاهرة من هذا الفراش الخشن الغليظ . لقد خيل إلىّ أنى لا أنام على شىء أو أنى أنام على فراش من الزئبق . كان جسمى يضطرب فى هذا السرير فلا يجد شيئاً يقاومه أو يثبت له ، إنما كان يغوص فى الفراش غوصاً . ولم أكد أطيل التفكير فى هذا ، ولم أكد أفرغ للتفكير فى غير هذا مما شغلنى آخر أيامى فى القاهرة وأكثر أيامى ولياليّ فى السفينة ، وإنما أخذت أفقد نفسى قليلا قليلا ، ثم لم أشعر إلا بهذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى لم أكد أردّ عليه حتى فتح له الباب ، وإذا أنا أرى هذا الشخص الرشيق .

والآن وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها ، وردّت علىّ اليقظة حسى كله وشعورى كله ، وذكرت فى لحظة قصيرة جدًّا كل ما أنبأتك به أيها الصديق ، أنظر فأرى الخادم ذاهبة جائية ، تهيئ طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير ، فأخرج من غفلة النوم لأدخل فى غفلة الذهول .

فأين أنا؟ وما هذه العناية بى ؟ وما هذا الحرص على تيسير الأمور كلها لى ؟ من زعم لهؤلاء الناس أنى فى حاجة إلى عنايتهم هذه الدقيقة ، وإلى رفقهم هذا الغريب ؟ هذا السرير الوثير ، وهذه الخادم تحمل الطعام إلىّ وتفتح النافذة وتدنى منى المائدة لأفطر فى سريرى ، أتراهم ظنوا أنى مريض ! فما أحسب أنهم ظنونى غنياً من كبار الأغنياء ؛ فما كان وجهى لينبئ بذلك، وما كان شكلى ليدل عليه .

والفتاة تتحدث وتتحدث ، والحديث ينبعث من فمها حلواً عذباً رقيقاً ، أحاول الآن أن ألتمس له تشبيهاً فلا أظفر بما ألتمس ، وإنما أصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا الحديث إلىّ ويغمرنى فيملؤنى دعة وراحة ولذة وهدوءاً . كنت أشعر كأن إنساناً يرسل إلىّ نفحات متصلة من الطيب تأخذنى من كل مكان . وكنت أحاول أن أرد عليها بعض الحديث فلا أجد إلى ذلك سبيلا ؛ لأنها لم تكن تمكننى من ذلك من جهة، ولأنى لم أكن أريد أن أقطع هذه اللذة من جهة أخرى . حتى إذا هيأت لى كل شىء ودعتنى إلى الطعام همّت أن تنصرف ، فردّ إلىّ الرشد ، وثُبْتُ إلى نفسى وسألتها متردداً متلهفاً : أين تذهبين ؟ قالت ضاحكة : أذهب إلى عملى . قلت : وما عملك ومن تكونين ؟ أو ليس من عملك أن تمكثى معى حتى أفرغ من طعامى؟ قالت وهى تُغرق فى الضحك : « أما عملى فهو هذا الذى رأيت والذى ترى . وأما أن أمكث معك حتى تفرغ من طعامك فليس من عملى وليس إليه من سبيل . وماذا تكون الحال لو أنى مكثت

مع كل من أحمل إليه الطعام من أهل الفندق حتى يفرغ من طعامه؟ » .
ثم أرسلت إليّ نظرة فيها دعابة وابتسامة يملؤها الظرف ، ومضت مسرعة لا تمشى على الأرض وإنما تمشى فى الهواء ، ثم أغلقت من دونها الباب وتركتنى ذاهلا كالأبله أمام هذا الإفطار الذى تركته وقتاً غير قصير معرضاً عنه إعراضاً ، ثم ناظراً إليه دون أن أقدم عليه .

وإنى لفى ذلك وإذا الباب يطرق ، فآذن فتدخل الفتاة نفسها قد أقبلت تحمل آنية الطعام . فاذا رأت كل شىء كما تركته منذ حين سألتنى دَهِشةً عن أمرى ، فأسرع إلى الطعام ضاحكا وأنا أقول : ألم أطلب إليك أن تمكثى معى حتى أفرغ من الإفطار ؟ لقد أبيت فلم أفطر، وها أنت ذى تعودين ، فانظرى كيف أسرع إلى الطعام .

وكنت مزمعاً أن أسافر مع المساء إلى باريس ، ولكنى لا أدرى لم غيرت رأيى ، أو لعلى أدرى لم غيرت رأيى؛ فقد قضيت فى القاهرة أياماً ثقالا وأجهدنى عبور البحر لكثرة مافكرت وقدّرت ولكثرة ما أرقت . وليس ما يدعونى إلى أن أسرع إلى باريس ؛ فليس الفصل فصل درس ، واللغة الفرنسية موجودة مسموعة حيثما وجهت من أرض فرنسا، فما يمنعنى أن أقيم فى هذا الفندق الجميل المترف أياماً أعوّد نفسى فيه حياة الفرنسيين ، وآخذ نفسى بما لابد من أن آخذها به من العادات والتقاليد حتى لا أظهر غريباً مضطرباً حين أصل إلى العاصمة ؟ وما يمنعنى أن أعوّد نفسى العبث فى مياه البحر على الساحل قبل أن أبعد فى السباحة وقبل أن أضطر إلى مصارعة

الأمواج الضخام !. لأمكثْ إذاً فى هذه المدينة أياما أستمتع فيها بالراحة وأتمرن فيها على الحياة الجديدة ، وأنعم فيها بدخول هذه الفتاة علىّ تحمل الإفطار إلىّ إذا أصبحت . فمن يدرى أين يكون مستقرى فى باريس ! أأجد غرفة كهذه الغرفة ، وسريراً كهذا السرير ، وفتاة كهذه الفتاة تحمل إلىّ الطعام فى كل صباح ؟ وهذه المدينة وَسَطٌ بين الجو الأوربى الخالص والجو الافريقى الخالص ؛ فهى على البحر الأبيض المتوسط ، وفى الانتقال الفجائى من جو إلى جو خطر على صحة الجسم ، وقد يكون فيه خطر على صحة النفس أيضاً . فلأصطنع الأناة ، ولأدعْ هذه العجلة فإنها لاشك من الشيطان . وما يمنعنى أن أستأنى وقد تركت مصر وجعلت من بينها و بينى بحراً عريضاً ، فلست أخاف على البعثة ، ولست أخشى أن أُرد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسى أيها الصديق من التعلاّت والمعاذير ما أقنعنى بأن الإسراع إلى باريس خطل وحمق ، وما حملنى على أن أنبئ أصحاب الفندق بأنى سأقيم أياما، وعلى أن أقدم على الكذبة الأولى فى حياتى الجديدة فأكتب إلى مراقب البعثة بأنى متعب محتاج إلى الراحة ، و بأنى سأبلغ باريس بعد أسبوع .

والغريب أنى قضيت النهار هادئاً مستريحا، لا أكاد أفكر فيما تركت ولا فيمن تركت ورائى قبل أن أعبر البحر، ولا أكاد أشعر بشىء من هذا الألم أو هذا الندم اللذين كانا يثقلان علىّ فى السفينة ، واللذين صوّرتهما

لك تصويراً مخيفاً فى آخر كتبى إليك ، واللذين كنت أظن أنهما سيلزمانى لزوم الظل . لم أكد أشعر بشىء منهما . ماذا أقول ! بل لم تتراء لى صورة حميدة إلا مرتين أو مرات قليلة . وكانت تتراءى لى من بعيد شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن، ولكنى كنت أراها مسرعة كأنها لا تريد أن تقف عندى ولا أن تثبت لى .

وهأنذا أكتب اليك الآن بعد أن عدت إلى غرفتى وقد كاد يبلغ الليل نصفه ، ونظرت فاذا الغرفة قد هيئت لاستقبالى، وإذا السرير قد هيئ لإيوائى ، وإذا دورق من الماء وكوب قد وضعا على هذه المائدة الصغيرة التى تلى السرير . ما شاء الله ! ما تعودت مثل هذه العناية . ولقد كان الظمأ يوقظنى فى الريف ، ولقد كان الظمأ يوقظنى فى القاهرة ، فما كنت أجد إلى اتقائه سبيلا إلا أن أتكلف النهوض والسعى إلى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التى كانت تبرد لنا الماء . فأما الآن فان الظمأ يستطيع أن يهجم علىّ وأن يوقظنى ، فسأعرف كيف أرده ردًّا ، وكيف أعود إلى النوم كما خرجت منه لا أجد فى ذلك جهداً ولا عناء .

على أنى لم أكد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادنى من الظمأ فى مصر حتى أحسست الظمأ ، فأصب شيئاً من الماء أحسوه فى هدوء . ولكن ماذا ! إنه لا يرد عنى ظمأ ولا ينقع لى غلة ، وإنى لا أجد له لذة حين أحسوه ، ولكنى أذكر قصة الأخطل وحديثه حين عرض عليه الماء فى مجلس عبد الملك فقال : شراب الحمار .

ولست حماراً يا سيدى مهما يكن رأيك فىّ وفى ذلك الشيخ ، أوقل كنت حماراً قبل أن أعبر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق ، وصعدت إلى هذه الغرفة وأويت إلى هذا السرير ، وانغمست فى فراشه الوثير ، وأدركنى ما أدركنى من النوم العميق ، وأيقظتنى هذه الفتاة ذات الوجه المشرق والثغر المضىء والحديث الحلو والروح الخفيف ، نظرت فاذا أنا لم أبق حماراً ، وإذا أنا قد مسخت إنسانا أو قل صوّرت إنسانا إن كانت كلمة المسخ لا ترضيك ، ولكنى على كل حال قد دخلت النوم حمارا وخرجت منه إنساناً يحس ويشعر ويعقل ويذوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون . فلما أصبحت إنسانا ، وذكرت قصة الأخطل ، فعفت شراب الحمار ، وآليت لا أرد الظمأ إلا بمثل ماردّه به الأخطل . ولا تغضب ياسيدى ولا تثر ؛ فأنا فى بلد لا يشرب أهله الماء . ولقد شهدت غداء الناس وعشاءهم ودهشت حين سألنى الخادم ماذا أريد أن أشرب ، فلما طلبت اليه الماء أظهر دهشا لم يكن أقل من دهشى حين ألقى علىّ سؤاله . ثم أقبل علىّ بالماء ، وبعد لحظة حدّق النظر فىّ ، ثم قال : ألا يريد سيدى شيئاً من النبيذ ؟ . فلما أبيت قال متبسطا بلغة أهل الجنوب ولهجتهم : «سيدى مخطىء فالماء لا ينقع الغليل هنا » .

ثم انطلق وعاد إلىّ بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ . ونظرت فلم أر الماء فى حجرة الطعام كلها إلا على مائدتى ، فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت أحسب أن الخادم إنما يرغّبنى فى النبيذ ترويجاً لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامى عرفت أن الناس يشربون النبيذ فى هذا الفندق كما

يشربون الماء لا يدفعون له ثمناً، أو هم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت إذاً ياسيدى ألا أردّ الظمأ بشراب الحمار، وأزمعت أن أدفعه بهذا الشراب الذى لم أنتظر قدومى إلى فرنسا لأعرفه وهو الجعة، فأدق الجرس وأنتظر أن يطرق الباب وأن يفتح وأن تدخل علىّ هذه الفتاة. ومن يدرى! لعلى لم أزدر الماء ولم أفكر فى قصة الأخطل ولم أبتغ هذا الشراب الحرام إلا تعلةً لأدقّ هذا الجرس، ولتدخل علىّ هذه الفتاة ، وليكون بينها وبينى طرف من حديث يقصر أو يطول . فقد جعلت أتّهم نفسى فى كل ما آتى وفى كل ما أريد منذ استيقظت ظهر اليوم . و إنى لأتبين أن منظر هذه الفتاة وعذوبة حديثها وخفة روحها وحسن خدمتها ودخولها علىّ مع الصبح و إذنها للشمس أن تغمر غرفتى ، كل هذا هو الذى بطّأنى عن باريس وحبب إلى المقام فى هذا الفندق . فأنا إذا فكرت أو قدّرت أو هممت أو فعلت ، أسأل نفسى لعل من وراء هذا التفكير والتقدير ولعل من وراء هذا الهم والفعل غرضاً خفياً غير ما توخيت من الأغراض الظاهرة . والباب يطرق وأنا أعلن الإذن بصوت مرتفع تظهر فيه اللهفة وقليل من الاضطراب. والباب يفتح، ولكن ماذا أرى! أرى رجلا شاباً قد أقبل فاتراً متثاقلا وقال فى صوت خافت يملؤه الكسل والسأم والضيق : سيدى يريد ؟ قلت وأنا أتكلف كظم ما يملؤنى من الغيظ و إخفاء ما لا أشك فى أنه ظهر على وجهى وفى عينى من خيبة الأمل ، قلت وكأنى ألقيت فى وجهه ما قلت إلقاء : أريد زجاجة من الجعة . قال : نعم صغيرة أم كبيرة ؟ قلت مغضباً :

أكبر ما عندك . ثم انصرف عنى وعاد إلى بزجاجته وقدحه. فلما همّ أن ينصرف قلت : فقد أحتاج إلى أخرى ، وما أحب أن أشق عليك حين يتقدم الليل . قال مبتسما: إن سيدى لظريف، ولكن عندى ما يريد سيدى. ثم مضى وعاد بإناء فيه الثلج وفيه زجاجة أخرى من الجعة ، وتمنى لى ليلا سعيداً ، وأغلق من دونه الباب .

ولعلك تنكر أيها الصديق إقبالى على الشراب، وعلى الشراب خاليا، وعلى الشراب بعد أن كذب الظن وخاب الأمل . ولكن ما رأيك فى أن كذب الظن وخيبة الأمل ، هما اللذان دفعانى إلى الشراب دفعاً ؛ فقد وجدت على الحظ وسخطت على الزمان، وأبيت أن أذعن لمكر الأقدار وغدر الظروف، وأقسمت لا أذوق النوم حتى أرى وجه هذه الفتاة المشرق وثغرها المضىء وأسمع حديثها الحلو وأستمتع بروحها الخفيف . وأى شىء أعون لى على السهر من الشراب والتفكير فيها والكتابة إليك ! لا تغضب ، فما كنت لأكتب إليك لولا أن أخلف الحظ ظنى وكذب أملى، واضطرنى إلى أن أستعين بك على الليل فى مرسيليا ، كما كنت أستعينُ بك على الليل فى القاهرة . لا تغضب ، فقد عرفتنى أوثر الصدق على الكذب ، وأكره أن أغشك أو أخفى عليك ما أجد . ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة لحظة قصيرة تهدأ لها نفسى الثائرة وتستقر لها خواطرى المضطربة ، ثم آوى إلى السرير لأنام ، وبين لقائك أو الكتابة اليك ، لما ترددت فى أن أرجىء لقاءك والكتابة إليك إلى غد حين يشرق النهار وتملك النفس صوابها كله

وأمنها كله ، ويفكر العقل فى غير فتور ولا قلق ولا اضطراب . ما أظن أنك سترضى عن هذا الكتاب؛ فليس فيه شىء يرضيك ، وليس فيه شىء يرضينى . وما كتبت اليك لأرضيك ولا لأرضى نفسى ، وانما كتبت اليك انتظاراً لمطلع الشمس .

ما أسرع ما تتغير نفس الإنسان ! بل ما أسرع ما تغيرت نفسى !. فصدّقنى أنى أنكرها أشد الإنكار ، ولا أكاد أصدّق أن هذه النفس التى كانت هائمة بحميدة ، محزونة بل جزعة لفراقها ، نادمة أشنع الندم وأبشعه على ما قدّمت إليها من مساءة واقترفت فى ذاتها من إثم — لا أكاد أصدّق أن هذه النفس التى لم تكن تذوق النوم إلا غراراً « مثل حسو الطير ماء الثماد » كما يقول شاعرك القديم ، قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقها ، ومحيت منها أو كادت تمحى صورة حميدة قائمة فى غرفتنا تلك تنهلّ دموعها الصامتة . لقد كانت هذه الصورة تؤرّقنى الليل ، وتنغّص علىّ النهار ، ويملأ سنوحها لى قلبى فرقا وذعرا . فأنا الآن أنتظرها فلا تسنح لى ، وأدعوها فلا تستجيب لى ، وألح فى الدعاء وفى الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجمة ، وكأنى أستحضر روحا من أرواح الموتى . وهى لا تثبت بعد أن أجهد نفسى فى دعائها واستحضارها ، وإنما تمر بى مرّاً سريعاً كأنها الطيف .

كيف انتقلت من طور إلى طور ! وكيف تغيرت من حال إلى حال ! أكنت خيّراً فأصبحت شريراً أم كنت شريراً أتكلف الخير ، فلما بلغت هذا البلد ألقيت عن نفسى أعباء التكلف وأثقاله وظهرت لنفسى كما

أنا، لامتحفظاً ولامنافقاً ؟ أم ماذا ؟ إني لفي حيرة لا أعرف لها حدًّا ، ولكني على ذلك كله راض عن نفسي بعض الرضا ، بل كل الرضا . أترى أني أسأت حين قطعت ما بيني و بين حميدة من الأسباب؟ هبني لم أفعل، أفكان مابيني وبين حميدة من الصلة يعصمني من الشر الذي أنا مدفوع إليه ، أم كنت أدفع إلى الشر دفعاً وأقترف الإثم اقترافا لا أحفل بحميدة ولا بحبها ولا بهذا العهد المؤكد الذي قطعته لها بالوفاء ؟. فأنا مدفوع إلى الشر ما في ذلك شك، وأنا عاجز عن المقاومة ، وأنا أسأل نفسي دون أن ألح عليها في السؤال : أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية ما كرة قد دفعتني إلى ما وراء البحر لألقى في هذه الأرض الغريبة كيداً يدبّر وأمراً يراد، ولأكون نهباً لشياطين الإثم والغواية والفساد ؟ أنا ألقي على نفسي هذا السؤال منذ رأيت هذه الفتاة ففتنت بها ، ولكني أكره أن أطيل التفكير فيه مخافة أن يثوب إليَّ الرشد وأن أردّ إلى الصواب من أمري ، وأن أتبين ما أنا مقدم عليه . ولست أريد أن أتبين ما أنا مقدم عليه الآن ، وإنما أريد أن أتبين الشر إن كان هناك شر بعد أن أتورط فيه . لماذا ؟ لست أدري . ولكني لست أستطيع أن أقف ولا أن أتأخر ، إنما أنا شيء قذفت به قوة عنيفة من قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح لا يستطيع أن يمسك نفسه ولن يستطيع أن يمسك نفسه ، حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض السهلة المستوية . أكنت ملحًّا في طلب البعثة رغبة في العلم الذي كنت أزّينه لنفسي أم رغبة في هذه الأبواب من الفتنـة التي لم أكن أستطيع أن أستفتحها في

مصر ، والتى لست أحتاج أن أستفتحها فى فرنسا لأنها تفتح لى وحدها ؟

ماذا أقول أيها الصديق ! أترانى جننت أم ترانى سكرت ؟ كلا ! لست مجنونا ولا سكران. وهاتان الزجاجتان لم أمسسهما ، و إنى لأتبين كل ما حولى ، و إنى لأعرف أنى أكتب إليك ، و إنى لأستطيع أن أنبئك من أمرنا بما لا يحسن المجانين أن ينبئوا به . لست مجنوناً ولا سكران ، ولكنى عاقل محكم العقل واضح الرأى صافى الذهن . أنظر فى المرآة فأرى نفسى منكرة بشعة ، وأخجل منها حين أنظر اليها أكثر من خجلى منك حين أكتب اليك . نعم لست مجنوناً ولا سكران ، ولكنى رجل يزدرى نفسه أشد الازدراء و يمقتها أبشع المقت . وكيف تريدنى على ألا أزدرى نفسى وأنا لا أكاد أرى خادما متبذلة تحمل إلىّ الطعام وتبسم لى وتتحدث إلىّ ، كما تحمل الطعام لعشرات من أمثالى وتبسم لهم وتتحدث اليهم ، بالصوت نفسه و باللهجة نفسها وبالدعابة نفسها، لا أكاد أراها مع هذا كله حتى يجن بها جنونى ويفتن بها قلبى ، وأرجىء من أجلها الرحلة إلى باريس ، وأقضى من أجلها الليل مسهداً أرقا ، أستعين على انتظارها وعلى انتظار الصبح بالكتابة والشراب !.

لست مجنوناً ولا سكران، بل لست أدرى من أنا ولا ما عسى أن أكون . لقد زعمت لك منذ حين أنى كنت حماراً قبل أن أعبر البحر فردتنى هذه الفتاة إنسانا . فصدّقنى! إنى لأرى نفسى انساناً ! ولا أعرف من أى نوع أنا بين الأنواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان .

إلى اللقاء أيها الصديق! لا أحب أن أطيل فى هذا الحديث فانى أخشى أن أخرج من طورى، وأن أدفع إلى هذا الجنون الذى أنكره وأبرأ منه .

إلى اللقاء! لو أنى عقلت وأحكمت أمرى لانصرفت عنك إلى هذا السرير الذى يدعونى إلى الراحة والنوم . ولكنى أعلم حق العلم أنى لن أستريح ولن أنام، وأنى سأقضى الليل إن أويت إلى فراشى لعبة لصورتين مختلفتين أشد الاختلاف ، إحداهما تخيفنى حتى تبلغ بى أقصى الخوف ، والأخرى تغرينى حتى تنتهى بى إلى غاية الإغراء . إحداهما حميدة البائسة، والأخرى هذه الفتاة الخادم التى لا أعرف من أمرها شيئاً إلا أنها جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح ، تحمل الطعام وتبسم للأضياف . كلا ! كلا ! إنى لأكذب عليك وأكذب على نفسى . إنى لأعرف من أمرها أكثر من هذا قليلا : إن اسمها « فرنند » .

إلى اللقاء أيها الصديق ! لأشغلن نفسى عنك وعن هاتين الصورتين بمصارعة هاتين الزجاجتين ، فإما أن تصرعانى فأستريح حتى توقظنى هذه الفتاة من غد ، وإما أن أصرعهما فليس الجرس ببعيد . وما علىّ إذا أزعجت الخادم وكلفته أن يحمل إلىّ زجاجة أو زجاجتين !

إلى اللقـاء .

أكتوبر فى . . . .

ليست الحياة لعباً أيها الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها لعباً. والجنون مباح على أن يكون قليلا ، فان طال فمصير صاحبه إلى مستشفى المجانين .

وقد أشفقت أن يطول جنونى، وقد أشفقت أن أدفع إلى هذا المستشفى، ولكنى أفقت بعد لأى ورشدتُ بعد غىّ، وكان أول ما لقيته فى فرنسا شرًا، ولكنى أرجو ألا أستقبل فيها منذ اليوم الا خيراً متصلا .

أنا أكتب اليك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة المستقر لا إقامة الزائر الملم. فستبدأ الحياة الجامعية بعد أيام، ولا بد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس، وإلا رددت الى القاهرة أشنع رد. وكيف ألقاك! وكيف ألقى أصحابنا! وكيف ألقى أهلى وأصحابهم فى الريف! وماذا أقول للناس! وماذا أقول لصورة حميدة إن عرضت لى فسألتنى ماذا أفدت من المكث فى باريس أو فى غير باريس من مدن فرنسا! وماذا أقول لصورة حميدة إن سألتنى ماذا جنيت من هذا الطلاق الذى أقدمت عليه فى غير أناة ولا رشد ولا تفكير!

نعم! لا بد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس وإرضاء الأساتذة الذين لا أعرفهم، وإرضاء مراقب البعثة الذى أعرفه وأحبه أصدق الحب وأقواه، وإرضاء نفسى التى لا أدرى أأوفق الى إرضائها أم أعجز عنه؛ فانها بعيدة الطمع شديدة السخط علىّ منذ عبرت البحر .

لا بدّ من الانتساب الى الجامعة، والاختلاف الى الدروس، وارضاء مراقب البعثة لأظفر بثقته واحترامه؛ فانا فى حاجة شديدة اليهما، وأنا لم أظفر منه الى الآن الا بالعطف والبر والإشفاق بعد السخط الذى ليس فوقه سخط والغضب الذى لا يشبهه غضب. فقد كلّفته من المشقة مالم يكلّفه أحد من

قبلى ، وقد حمّلته من الجهد مالم أحمّله أحداً من قبله . فلم تكن هذه الأسابيع التى أنفقتها فى فرنسا ناعمة ولا راضية ، ولم يكن يملؤها الهدوء والاطمئنان ، وإنما كانت أسابيع بؤس وجنون وشقاء ومرض أيضاً . واكتُمْ علىّ ؛ فان أحداً من المصريين فى باريس لم يعرف مما أصابنى شيئاً ، وأنت أول من يعرف قليلا من أمرى بعد مراقب البعثة ، هذا الصديق الفرنسى الذى يعرف من أمرى كل شىء ، ويكتم من أمرى كل شىء ، ويعنى بأمرى عناية الأخ المحب الرفيق ، والذى استطاع أن ينقلنى من فساد لا حدّ له إلى صلاح أرجو ألا يكون له حد .

أنا أكتب إليك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة الساكن المستقر لا إقامة الزائر الملم . فقد زرت باريس فى الصيف ، ولكنى لم أُقم فيها إلا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة وعرّفته نفسى، وقلت له وسمعت منه ، ثم استأذنته فى أن أترك باريس حتى ينقضى الصيف . ولم ير بذلك بأساً ، ولعله رأى فيه خيراً ؛ فقد كان يحب ألا ألقى المصريين لأول عهدى بفرنسا ليصح تمرينى على اللغة ويحسن حديثى إلى أهلها وفهمى عنهم . وقد زعمت له أنى أحب أن أعود إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لأن جوه قريب من جو مصر ، فلم ينكر ذلك ولم ير به بأساً ، ولكنه نهانى عن مارسيليا وزيّن لى مدينة قريبة منها على ساحل البحر أيضاً هى مدينة « كان » . فأظهرت الطاعة له والقبول لرأيه . والغريب أنه منحنى أجر السفر على حساب الجامعة للذهاب والإياب . وتركته وتركت باريس ؛ ولكنى لم

أذهب إلى « كان » ولم أنزل فى الفندق الذى سماه لى من فنادقها إلا بعد أن مررت بمرسيليا .. وأقمت فى فندق جنيف أياماً ، واستوثقت من أنى لن أكون وحيداً فى « كان » .

ولم لا ؟ إن لفِرْنَنْد وإن كانت خادماً الحق فى أن تستريح وتصطاف كما يستريح السادة ويصطافون . وما يمنعها أن تستريح وتصطاف أسبوعين حيث أستريح أنا وأصطاف ! ! .

وكذلك لم أسافر من مرسيليا إلا بعد أن قدّمتها بين يدىَّ إلى « كان » فى قطار الصباح ، ولحقت بها فى قطار من قطارات المساء : ولا تسل بعد ذلك عن هذه الأيام الحلوة المرة ، المشرقة المظلمة ، التى قضيتها فى هذه المدينة مع فرنند فى أول الأمر ، ثم وحيداً بعد أن آن لفرنند أن تعود . ولا تسل عما جنته علىَّ هذه الوحدة من السيئات والآثام ؛ فأنت أكرم علىَّ وأحب إلى من أن أقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وأنت لا تقرأ كتبى بنفسك، وإنما يقرؤها عليك غلامك الأسود الصغير . وحسبك أن تعلم أنى رجعت إلى باريس متعباً مكدوداً . أستغفر الله ! بل مريضاً مشرفاً على أعظم الخطر وأشده نكراً . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وإن له عندى ليداً ما أعرف أنى أستطيع مكافأتها إلا بالجد الذى يرضيه . ولأبلغنَّ من هذا الجد ما أريد وأكثر مما أريد .

لا تغضب إن انقطعت عنك كتبى ؛ فما أظن أنى سأفرغ للكتابة إليك قبل أن يمضى وقت طويل .

١٥

وكان طويلا حقًّا هذا الوقت الذى انقطعت عنى فيه رسائل صاحبى . وقد كنت أقدّر أنه سيتركنى شهراً أو شهرين . وكنت أظن أنه لن يستطيع أن يبلغ هذا الأمد دون أن تثور به خواطره هذه الغريبة فتردّه إلىّ يلتمس عندى شيئاً من الأمن وراحة النفس واستقرار الضمير . ولكن الأسابيع مضت فى أثر الأسابيع ، وانقضت الأشهر فى أعقاب الأشهر ، دون أن أتلقى من صاحبى كتاباً أو شيئاً يشبه الكتاب . والغريب أنه لم يُعرض عن الكتابة إلىّ وحدى ، وإنما انقطعت عن أصحابنا هذه الجمل القصار التى كان يرسلها إليهم على بطاقات البريد ، وانقطعت أخباره حتى عن أهله فى الريف . فكثيراً ما كتب إلىّ أبوه الشيخ يسألنى أوَصَلَ إلىّ من أنباء ابنه شىء ، فكنت أرد عليه بأن ابنه فى باريس على خير حال ، يختلف إلى السربون ، ويرضى أساتذته ، ويرضى مراقب البعثة ، ويرضى الجامعة المصرية عنه أحسن الرضا . ولم أكن أعلله بالأمانىّ ولا أقول له غير الحق ، وإنما كنت أسأل عن صاحبى فى إدارة الجامعة ، وأعرف منها أنه بخير وأنه يجد فى الدرس جدًّا غير مألوف ، ويظهر من التفوق ما لم يألفه الأساتذة الفرنسيون من الطلاب المصريين . ولم أكن أجد فى هذا غرابة؛ فقد كنت أعرف من ذكاء صاحبى الشاذ واستعداده النادر ما لم يكن يعرف غيرى من الذين اتصلوا به وخالطوه . وكانت هذه الأنباء تكفينى

وترضيني ، وتقوم له بالعذر عندى عن انقطاع رسائله عنى ، وتملأ نفسى حبا له و إعجاباً به وشوقاً إليه وحرصاً على أن يتاح لى ما أتيح له من الحظ فأعبر البحر كما عبره . ولكنى كنت أقسم لئن بلغت مرسيليا لأجتنبن المقام فيها إلا ريثما يحملنى القطار إلى باريس . وكثيراً ما كنت أسخر من نفسى حين كان يخطر لى هذا الخاطر . فماذا أخاف من مرسيليا ! وماذا أخاف من فندق چنيف ! وماذا أخاف من فرنند وأمثال فرنند ! وما أنا وهذه الفتن التى لم تصل الأيام بينى وبينها سبباً ، ولم تجعل الأيام لها على نفسى سبيلا ! وما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً فى الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان الأزهر الذى أخفقت فيه إخفاقاً بشعاً ، وأتهيأ لامتحان الجامعة الذى نجحت فيه نجاحاً حسناً ! ثم ما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً فى أدب أبى العلاء وفلسفته ، متمثلا لهذه الفلسفة ، متكلفاً لتشاؤم شيخ المعرة ! وكثيراً ما كنت أخدع نفسى وأغرها ، وأزعم لها أنى سأذهب إلى باريس كما ذهب أبو العلاء إلى بغداد . ومن يدرى ! لعلى أعود من باريس ، كما عاد أبو العلاء من بغداد ، فألزم قرية من القرى وأقيم فيها لا أريم . ولم أكن فى حاجة إلى أن أطلب إلى أهل هذه القرية كما طلب أبو العلاء إلى أهل المعرة ألاّ يكلفوه أن ينفر معهم من القرية إذا أغار عليها الروم ؛ فلم أكن أخشى أن يغير الروم على قريتى فى أدنى الصعيد أو أقصاه . وكذلك كنت مشغولا بجدّ الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التى تعرّض لها صاحبى ، فأفسدت عليه خُلقه ودينه وصحته ، وكادت تنتهى به إلى الموت .

ثم ينقضى العام ويتقدم الصيف ، وإذا الأنباء تأتى من باريس بأن صاحبى قد فعل الأعاجيب ، فأتم فى عام واحد ما لا يتمه غيره فى أعوام ، وتقدم إلى امتحان ذى بال ففاز فيه وفاز بتهنئة الأساتذة أيضاً . وهو مع ذلك لا يكتب إلىّ ولا يفكر فى . وقد كنت أظن أن فوزه فى الامتحان وفراغه للراحة سيردّانه إلى صديقه لحظات قصاراً أو طوالا .

ولكن الصيف كله ينقضى وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه بشىء . حتى إذا كان شهر أكتوبر تلقيت منه هذه الأسطر :

اكتوبر فى . . . .

إنك تنتظر أن أكتب إليك لأصف لك حياتى فى باريس . وما كان أحب إلىّ أن أفعل ! ولكن حياة باريس لا توصف فى الكتب والرسائل ، ولا سبيل لك إلى أن تعرفها معرفة مقاربة إلا إذا حييتها . على أنى أحب أن أصور لك شعورى فى باريس تصويراً مقارباً غير دقيق . ولن يكون هذا التصوير بكلام أكتبه إليك ؛ فالكلام كما قلت لا يغنى فى باريس شيئاً . ولكن اذهب إلى الأهرام ، فما أظن أنك ذهبت إليها قط ، وانفذ إلى أعماق الهرم الكبير ، فستضيق فيه بالحياة وستضيق بك الحياة ، وستحس اختناقاً وسيتصبب جسمك كله عرقاً ، وسيخيّل إليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم ، وأنه يكاد يهلكك ، ثم اخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف ، واعلم بعد ذلك أن الحياة فى مصر هى الحياة فى أعماق الهرم ، وأن الحياة فى باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق .

واجتهد فى أن تتم ما بقى لك من درس فى القاهرة ، وتؤدى ما بقى لك من امتحان . واجتهد أيضاً فى أن تستبقى رضا الذين يحبونك ويشجّعونك ويريدون أن تتم درسك فى باريس . وأسرع إلى باريس متى استطعت فانى أنتظرك فيها . وما أكثر ما سيكون بينك وبينى من الأحاديث !

١٦

وتنقضى السنة الدراسية كلها لا يصل إلىّ فيها من صاحبى كتاب ولا نبأ . وإنما أسأل عنه فى الجامعة كما كنت أسأل فى العام الماضى ، فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف فى العام الماضى أنه مقبل على الدرس فى نشاط وتفوق ، وقد أخذ يدرس اللاتينية بعد أن أحسن الفرنسية إحساناً لا بأس به . وأنا أكتب إلى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأتحدث بها إلى أصحابنا، حتى أصبح اسمه بيننا رمزاً للجد فى العمل وللتوفيق فى الحياة .

وقد تهيأت لى أسباب الرحلة إلى فرنسا على خير ما كنت أحب . وإنى لأستعد للرحيل متنقلا لذلك بين القاهرة والصعيد ، وإذا الحرب الكبرى تعلن ، وإذا كل شىء يتغير فى حياة الأفراد والجماعات، وإذا رحلتى تؤجل ، وإذا أنا مضطر إلى أن أقيم فى القاهرة بائساً محزوناً سيئ الحظ خائب الأمل . وتأتى الأنباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين، وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دنت منها جيوش العدو . ولكنى أتلقى من صاحبى هذا الكتاب :

أغسطس فى . .

لقد زُلزلت الأرض زلزالها ، واضطرب فيها كل شىء وكل إنسان أيها الصديق . وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئاً ، فأنت تقرأ من ذلك فى الصحف المصرية والأجنبية ما لا أستطيع أن أبلغه ولا أن أقاربه. وإنما أكتب إليك محزوناً لأن الظروف لم تهيئ لك الرحلة التى كنت ترجوها وتعقد بها الآمال، والتى كنت أنا أرجوها وأنتظر منها خيراً كثيراً. فليس لى بين المصريين المقيمين فى باريس صديق آنس إليه إن سرتنى الحياة ، أو أستعين به إن ساءتنى . وإنما نحن قوم متخاذلون متنافسون ، يُبغض بعضنا بعضاً، ويمكر بعضنا ببعض ، ويكيد بعضنا لبعض فى كل شىء ولسبب ولغير سبب . قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه، فجهل كل واحد منا من أمر أصحابه كل شىء إلا هذه الأمور الظاهرة التى ليس إلى جهلها من سبيل . فنحن نعرف من يختلف إلى السوربون فى مواظبة ، ومن يزورها لِماماً ، ومن ينفق يومه فى البيت وليله فى القهوة . ونحن نعرف من يعبث مع هذه الفتاة من بنات الغىّ ، ومن يدور حول هذه الفتاة من طالبات العلم . ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها ، ونعرف من يلهيه تتبع الطالبات فى غير نفع عن الدرس والتحصيل . ونحن نعرف من يكتب إلى أهله بالأكاذيب ويخدعهم بالأمانى، ويستخلص منهم المال بالحق والباطل، وينفق حياته كلها فى اللهو واللعب . ونحن إذا لقى بعضنا بعضاً لم نتحدث إلا فى هذا ، ولم نستعن على أنفسنا إلا بهذا . وأظنك تعلم أن ليس لى فى

شيء من هذا أرب ولا لذة . فأنا وحيد بين المصريين فى باريس وإن لم أكن وحيداً بين الفرنسيين؛ فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ويحبوننى وآمن لهم ويأمنون لى . ولكنى ألاحظ أن لى نفسين : نفساً تأنس إلى الفرنسيين ، وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو ، ونفساً أخرى مشوقة أبداً ، ملتاعة أبداً ، تحب أن تسمع صوتاً مصريا صادقاً ، وأن تأمن إلى قلب مصرى صادق . على أنى قد حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعاً . فأما أولئك فقد فروا بأنفسهم من الموت الذى يقال إنه قد يغزو باريس . وأما هؤلاء فقد دفعوا بأنفسهم دفعاً إلى لقاء الموت ليردوه عن باريس . وقد أنفت أن أفر مع أولئك ، وضعفت أن أنفر مع هؤلاء ، وآثرت موقفاً لا أحمده لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار . وما أرى إلا أنى سأخرج من هذا الموقف كارهاً إن استطاع الموت أن يقتحم ما أعد له الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخالدة ؛ فما أملك حياتى حين يُقدم الموت على باريس . على أنى أجد فى هذه المدينة الخالية التى فر الناس منها ذعراً أو نفر الناس منها حفاظاً ونجدةً ، شيئاً من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وإنما أستطيع أن أقول إنه يملك علىّ نفسى ويفعم قلبى إفعاماً ، ويحبب إلىّ هذه الأرض كما لم أحب أرضاً قط .

نعم ! وأجد فى مقامى فى هذه المدينة الخالية لذة لا أدرى كيف أصورها ، وفخراً لا أعرف كيف أصفه . ومع أنى لم أنفر مع الناس فقد يخيّل إلىّ أنى

شجاع؛ فليس جباناً ولا ضعيف القلب هذا الذى لم يفر مع من فر، ولم يعد إلى مصر فيمن عاد من الطلاب، ولم يغير من أمره شيئاً مع أن كل شىء من حوله قد تغير، وما زال يتغير، وإنما ظل فى مكانه هادئ النفس مطمئن القلب ينتظر الأحداث والخطوب لا خائفاً ولا وجلا ولا مذعوراً.

ولقد أخذت على نفسى عهداً ألا أبرح باريس مهما تكن الظروف. وستعلم أنى سأفى بهذا العهد مهما يكلفنى ذلك وإن انتهى بى إلى الموت. وأى شىء يكون الموت فى سبيل باريس! لقد أبيت أن أكتب إليك فى وصفها وفى وصف الحياة فيها؛ لأن ذلك لم يكن ميسوراً، ولأنى كنت أرجو أن تَقْدَم على باريس فأُظهرك على ما تستطيع أن تظهر عليه من أمرها. وقد تأخر قدومك، وكنت أحب أن أُعلّك بالحديث عن باريس، ولكنى عاجز حتى عن هذا، مشغول بالحديث إلى نفسى عن الحديث إليك. فكم لى من ساعات أخلو فيها إلى نفسى حتى تنقطع الأسباب بينى وبين كل شىء، وبينى وبين كل إنسان! والناس مع ذلك حولى يذهبون ويجيئون ويموج بعضهم فى بعض. فأنا لا أخلو إلى نفسى هذه الخلوة فى بيتى وإنما أخلو إلى نفسى فى الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس ويزدحمون. أخلو إلى نفسى أمام تمثال من هذه التماثيل، أو عمارة من هذه العمارات، أو معهد من هذه المعاهد التى يستقر فيها الجدّ خصباً حافلاً بالنفع والأمل، لا لأهل باريس، ولا لأهل فرنسا، بل للناس جميعاً،

ومنهم هؤلاء العدو الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون أن يصبوه عليها صباً .

نعم ! وأخلو إلى نفسى أمام معهد من معاهد اللهو ، هذه التى تستقر فيها الدعابة فتبعث الفرح فى القلوب جميعاً ، وتبعث الابتسام على الثغور جميعاً ، وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة الى الذين زهدوا فى الحياة .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء التى أراها كنوزاً للإنسانية قد حوت خير ما عند الإنسانية من فن وأدب ، ومن فلسفة وعلم ، ومن عمل وأمل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأفكر فى أن قوماً يزحفون عليها يريدون بها السوء ، ولا يكرهون ، ولعلهم يحبون أن يمحقوها محقاً ، ويسحقوها سحقاً ، ليغضّوا من أمر باريس ، وليغضوا من أمر فرنسا ، دون أن يحفلوا بأنهم إن فعلوا فسيغضّون من أمر الحضارة كلها ، وسيعلنون فى القرن المتم العشرين كما أعلن آباؤهم فى أول التاريخ المسيحى أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال ، وأن الانسانية قد آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف ، وأن تعود إلى هذه الراحة المجدبة التى يملؤها الذل والعقم والهوان .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأراها قائمة باسمة نضرة يملؤها الفخر والتيه ويزدهيها الأمن ، ثم أراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوساً ونضرتها ذبولاً وكبرياؤها ذلاً وخنوعاً ، وإذا

أنا مدفوع اليها متصل بها ؛ فأنا فيها أنعم لأنها ناعمة ، وأبسم لأنها باسمة ، وأبتئس لأنها مبتئسة ، ويدركنى الموت لأنه أدركها .

حرام علىّ فراق باريس حتى أصير إلى مثل ما تصير إليه، وأخرج معها من الأهوال بما تخرج به منها . ولتغضب الجامعة إن شاءت أن تغضب ، ولترض الجامعة إن أحبت أن ترضى ؛ فقد دعت طلابها إلى مصر فعادوا سراعاً . وأكبر الظن أنها ستردهم إلى فرنسا بعد أن تستقر الأمور شيئاً ، ولكنها ستحول بينهم وبين باريس لأن باريس قريبة من الخطر معرّضة له دائماً . وسيعود هؤلاء الطلاب وقد تَقَدَّم أنت معهم ، وسيتفرقون من أرض فرنسا فى حيث يستقر الأمن والسلم ، وفى حيث لا تصل إليكم يد العدو ولا تبلغكم قذائفه . أما أنا فمقيم هنا لا أريم ، منتظر هنا مع المنتظرين. ومن يدرى ! لعلى أخرج من هذا الانتظار إلى العمل . فما ينبغى للرجل الكريم ذى المروءة أن يعيش مع الناس ضيفاً عليهم مستمتعاً بما يمنحونه من الأمن آخذاً بأوفر حظه مما يبيحون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى إذا ألمت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الأحداث، فر عنهم مسرعاً لا يلوى على شىء ، أو أقام فيهم جباناً أثراً خانعاً لا يبتغى إلا أن يعيش .

نعم ! ما ينبغى للرجل الكريم ذى المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة. وما كنت أحب للجامعة أن تُلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم إلى هذه السيرة ، وإنما كنت أحب منها شيئاً آخر . وأنا أعلم أن الجامعة أمينة على حياة طلابها مسئولة إلى حدما أمام أهل هؤلاء الطلاب ، ولكنى أعلم

أيضاً أن الجامعة لا تجير من الموت ، وأن أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجعوا عليها إن ألمّت بطالب من طلابها علة مهلكة أو عدت عليه عادية لا مردّ لها . وهل الحرب إلا بعض هذه العلل والعوادى ! وماذا تقدّم الجامعة إلى الناس حين تقدّم إليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر ، وآثروا الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة وعرفان الجميل ، حين كان هذا كله يريدهم على أن يسعوا إلى رد الخطر كما سعى الفرنسيون ، أو يثبتوا لانتظار الخطر كما ثبتُّ أنا ! إنما تقدّم إليهم أساتذة قد فروا من الخير إلى الشر ، ومن الإيثار إلى الأَثَرَة ومن الكرم والنبل إلى الذلة والهوان .

وأنا أعلم أنك أيها الصديق تنكر هذا منى ، وتراه جنوناً أو تراه إسرافاً . ولكن ما رأيك فى أنى أرى هذا طبيعياً ، وأصدر عنه حين أفكر وحين أعمل ، وفى أنى قد رفضت العودة حين عاد الطلاب الجامعيون ، ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين إلى الأقاليم النائية ، وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له جهداً . وسينقطع عنى من غير شك راتب الجامعة ، ولن أطلب العون من أهلى ، وما أحب أن تنبئهم من ذلك بشىء . وقد أتعرض للضر ، وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأساً ؛ فإن معى ملايين سيتعرضون لهذا الضر ، وسيذوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على أنى لا أريد أن أغلو ولا أصور لك نفسى فى صورة البطل . فلئن نجت باريس من هذا الشر المحدق ، لأعودنّ إلى ما أنا فيه من حياة هادئة وادعة . ولئن ألمت بها الكارثة

لأ كون واحداً من هذه الملايين التى تشقى ، ولكنها لا تصور شقاءها فى الكتب ولا تتحدث به إلى الأصدقاء من وراء البحر ، وإنما تلقاه ثابتة له مطمئنة اليه ، حتى تنفرج عنها الكربة ، وتزول عنها الغمة ، وتنجاب عنها ظلمة الليل . ولعل أظهر ما تترك الحرب فى نفوسنا من الآثار أنها تهوّن علينا الحياة ، وتزيل عنها هذه الأغشية التى نسجتها الحضارة لها نسجاً من الأثرة وحب اللذة والتهالك عليها ، والطموح إلى الترف ، والحرص على الأمن والاستمتاع بما يبيح من نعيم ، فكل هذا شىء مصنوع متكلف أنتجته الحضارة إنتاجاً . وليس هو فى طبيعة الحياة ، وإنما طبيعة الحياة أيسر من هذا وأدنى إلى السذاجة . إنما هى حركة ونشاط يعقبهما سكون وخمود . إنما هى هذا الذى نراه فى غيرنا من الحيوان الذى يتبع غرائزه آخذاً من نشاطه بأعظم حظ يستطيعه ، حتى إذا ألمّت به الكارثة أو تلقّاه الموت لم ينظم شعراً ولم يكتب نثراً ، وإنما انتظر الموت مذعنا له ، ودخل فى الفناء كما خرج منه ، لم يرد الدخول فيه كما لم يرد الخروج منه .

نعم ! هذا أظهر ما تترك الحرب فى نفوسنا من الآثار. فنحن نتبع غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا . نحن شجعان دون أن يكون لنا فضل فى الشجاعة. ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل فى الإيثار . ونحن جبناء وأثرون أيضاً دون أن يكون علينا فى الجبن والأثرة لوم . إنما نُقْدِم أو نُحجم لأنا ندفع إلى الإقدام أو نردّ إلى الإحجام ، لا نرى من هذا ولا ذاك بدًّا . ذهبتْ بالقياس إلينا كل فلسفة، وانحلّت بالقياس إلينا كل قاعدة ، وأُرسلتْ

نفوسنا على سجيتها إرسالا . فنحن ننتهز الفرصة حين نظفر بها ، ونستمتع باللذة إلى أبعد غاية الاستمتاع حين تتاح لنا ، لا نحاسب أنفسنا ولا نسألها . وفيم الحساب والسؤال ونحن لا نفكر فى العاقبة لأن فكرة العاقبة قد محيت من نفوسنا محواً ! وما التفكير فى العاقبة وما السؤال عنها ، ونحن نراها ساعية إلينا مشرفة علينا ، قد زُلزلت الأرض من حولنا زلزالا ! أليست هى فى هذا الموت الذى يسعى إلى باريس ويوشك أن يبلغها غداً أو بعد غد !

لست أدرى إلى أى عاقبة تنتهى هذه الحرب. ولست أدرى لمن سيتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة . ولكن الذى لا أشك فيه هو أن الناس سيقضون أيام الحرب والأعوام التى تليها متأثرين بالغرائز أكثر مما يتأثرون بأى شىء آخر ، مهدرين لما عرفوا من قيم الأشياء إهداراً ، مزدرين لما ألفوا من المُثل العليا. وما أرى إلا أنهم سينفقون دهراً متمردين على العقل والخلق ، واجدين فى هذا التمرد أقصى اللذة وأقصى الألم .

لست أدرى أتفهم عنى ؟ فقد ألقت الظروف بينك وبينى حُجبا كثافا صفاقا ، لعل الكلام لا ينفذ منها ، ولعل العقول لا تتصل من دونها . أنت آمن وأنا خائف . أنت هادئ وأنا مضطرب . أنت لا تخشى الموت وأنا أراه يسرع إلىّ وإلى ما حولى ومن حولى فى غير ريث ولا أناة . كم أحب لك أن تعبر البحر لتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا الميدان ، أو ألموا به ثم ردوا عنه . فهما تكن المدينة التى سترسل

اليها بعد أشهر فستكون فيها قريباً من المئات والآلاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزَّعون توزيعاً على ما أقيم فى فرنسا من المستشفيات ، وستسمع من هؤلاء أو من الذين يتصلون بهؤلاء أنباء الموت وأحاديث الحرب ، وستفهم أنها خليقة أن تغير فى الحياة رأى الأحياء. أين أنا؟ وماذا كنت أريد أن أقول لك حين بدأت هذا الكتاب ؟. لقد أُنسيت مكانى وأُنسيت بدء الحديث . وها أنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذى أنا فيه والذى أكتب إليك منه. إنها هذه القهوة التى يألفها الأدباء فى حى مونبرناس ، والتى تعودت أن أختلف إليها ، وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم ، لأراهم حين يُقبلون وحين ينصرفون ، ولأسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة الحلوة ، وهذه الفكاهة ذات الأجنحة ، وحين يتناشدون الشعر ، ويتبادلون الرأى فيه حول أقداح الابسنت إذا دنا الظهر أو أقبل الليل ، وحول كئوس الكونياك وأقداح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء . إنى لأعرف نفسى فى هذه القهوة التى كانت وقفاً أو كالوقف على أدباء الحى اللاتينى . ولكنى أختلف اليها منذ أيام فلا أرى فيها حلق الأدباء ولا أنديتهم، وإنما هى مزدحمة دائماً تكتظ بالمقبلين عليها من كل صوب ، قد اختلطوا أشد الاختلاط، وتباينت طبقاتهم أشد التباين . وهم يلمون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام ، إنما يلتقون ويفترقون ، ويصيبون بعض ما يحتاجون اليه من شراب بارد أو حار ، ثم يمضى كل منهم لوجهه . ومن يدرى ! لعلهم لا يعودون الى هذه القهوة أبداً . ومن يدرى! لعل الذين يلتقون فيها لا يلتقون

بعد هذا اليوم أبداً . وباريس كلها فى هذه الأيام تشبه هذه القهوة ، يلتقى فيها الناس سراعاً ويفترقون سراعاً . كلهم معجل، وكلهم قلق، وكلهم يستقبل الساعة التى هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التى تليها حسابا ؛ لأن حساب الساعات لم يبق فى أيدى الناس وإنما صار إلى يد « أم قشعم » . ألستم تزعمون أن أم قشعم هى الحرب ! تعالَ أيها الصديق فانظر إليها وابلُ سلطانها على النفوس، فسترى وستسمع وستحس أشياء لاصلة بينها و بين ما تقرأ فى شعر زهير .

وداعاً أيها الصديق. لقد ذكرت الآن فِيمَ أقبلت إلى هذه القهوة . فهذه «إلين» تقبل علىّ مبتسمة فى هذه الأيام التى لايفهم فيها معنى الابتسام، وأنا أبسم لها. ولا تسلنى عن إلين ؛ فالله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم. وما أحب أن أسوءك بحديث إلين ، فيكفى أن تعلم أن صديقك الذى كان جاداً كل الجد ، منصرفا إلى الدرس كل الانصراف ، قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الأسباب كلها بينه و بين حميدة وفرنند . يكفى أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجد وقطع الأسباب بينه و بين الدرس ، ووصل الأسباب بينه وبين إلين .ولن أحدثك عنها مادامت هذه الأسباب موصولة ، فإذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فأنت تعلم أنى لا أحدثك عن رضاى حين أرضى ، وإنما أحدثك عن شقائى حين أشقى ، فتمنَّ لى الشقاء إن حرصت على أن أتحدث إليك .

وداعاً أيها الصديق! إن إلين تضيق بانصرافى عنها إليك. ولئن مضيت

فى هذا الحديث لتمزقن كتابى إليك تمزيقاً. فلأنصرف عنك إليها، ولأستقبل معها حياة المساء فى باريس المضطربة. فمن يدرى عمَّ يسفر لنا الصباح.

١٧

ديسمبر فى . . . .

وكذلك عبرتَ البحر فى أيام الحرب وفى فصل الشتاء، ولقيت من عبوره هذا الشر العنيف الذى خلقته لنفسك خلقا، وخيّلته إليها تخييلا أيها الصديق. فما كانت سفينتك معرّضة لخطر الغواصات. ولو عرفت الجامعة أنكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم إلى فرنسا؛ فهى حريصة على حياتكم حرصاً شديداً. وما كانت سفينتك على صغرها وطول العهد عليها معرّضة للغرق ولا لأن تحطمها الأمواج. فلو كانت تعرّض لشىء من ذلك لما أُذِن لها بالعمل فى البحر. وإنما أنت رجل من أبناء الريف لا تعرف المخاطرة ولا المغامرة؛ فكل جديد عندك خطير، وكل مشقة عندك مشرفة بك على التهلكة. وها أنت ذا قد نجوت من الغرق، فلم تنسفك غواصة ولم يطغَ الموج على سفينتك. فأنعَمْ بهذه النجاة، وانعم بالوصول إلى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف إلى جامعة مونبلييه، وانعم بما قدّر لك من أمن وهدوء؛ فلن يبلغ الألمان مونبليه. وأنَّى لهم أن يبلغوها وهم قد رُدُّوا عن باريس كما علمت ردًّا عنيفاً، وهم قد اضطروا إلى هذه الحياة التى يحيونها فى الخنادق ينتظرون أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الهجوم، وينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحسر

الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف وليخرجوهم من أرض الوطن إخراجاً !

اهنأ بهذا الأمن فى مونبلييه وإن كنت لا أفهم لِمَ وجَّهتكم الجامعة إليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمنا من مونبلييه بعد أن رُدَّ الألمانيون عنها رداً وقد كُسِرت حدَّتهم وفُلَّتْ عزائمهم ، فلن يبلغوها بعد اليوم مهما تتح لهم القوة ومهما يواتهم الحظ . ولكنكم قوم تحسنون الاحتياط وتغلون فيه وتتجنبون حتى مظنة الخطر . فلتنعموا بما أُتيح لكم من هذا الحذر الذى لن يغنى عنكم من الله شيئاً . ولكنى أحب لك ألا تخدع نفسك بالأمانى ولا ترسلها مع الغرور ، ولا تخيل إليها أنك تعيش فى فرنسا تلك التى عرفناها قبل الحرب ؛ فإن فرنسا تلك ليست فى المدن ولا فى الأقاليم ولا فى باريس ، وإنما هى فى ميدان القتال، تواجه الموت وتبسم له بعد أن كانت من قبل تواجه الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة شيوخ عجزوا عن حمل السلاح إلى الحرب فأقاموا فى الجامعة يعلّمون . وستختلف إلى الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لا حظَّ لهم مما كان يملأ نفوس الفرنسيين من فرح ومرح ونشاط . ستعيش فى بيئة مظلمة مكفهرة، فيها أمل ولكنه بعيد، وفيها خوف ولكنه قريب . فيها أمل فى فوز فرنسا ، وفيها خوف على أبناء فرنسا . وفيها يأس لاذع يتردد بين ذلك الأمل وهذا الخوف . والحياة فى هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع ، ولكنك لا تستطيع أن تبلوها كما ينبغى ؛ لأنك لم تر فرنسا الفرحة المبتهجة الآمنة لتقيس إليها فرنسا المحزونة المكتئبة الخائفة . افرغ إذاً لعلمك ودرسك ،

وامنح أكثر وقتك للكتب ، وأجِّلْ معرفة فرنسا إلى حين ؛ فإنك لن تعرفها حق المعرفة إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومتى تضع الحرب أوزارها ؟ . .

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك إلى هذا الحد ؛ فقد ذهبتَ فيما زعمت لى إلى فندق چنيف حين انتهيت إلى مرسيليا ، وكنت تظن أنك ستلقى فيه فرنند . ويحك ! وهل تبقى فرنند فى فندق واحد كل هذا الأمد البعيد ! من يدرى أين فرنند بعد ما مضى من الزمن ، وبعد ما اضطربت شؤون فرنسا وشؤون الأرض كلها هذا الاضطراب ! وماذا كنت تريد إلى فرنند ؟ وعمّ كنت تريد أن تسألها ؟ لقد أنبأتك بما وسعنى أن أنبئك به من أنبائها ، فهل كنت تريد أن تمتحن ذوق ؟ أم هل كنت تريد أن تعرّض نفسك لمثل ما عرّضت نفسى له من المحنة ؟ إنك لست فى حاجة إلى فرنند إن كنت تريد أن تبلو مثل ما بلوت ؛ فأمثال فرنند كثيرات فى كل فندق وفى كل مدينة وفى كل بيئة . فاحذر أن تتعرض لمكرهن ، وارفع نفسك عن هذا الشر الذى غمست نفسى فيه ، والذى لا أستطيع أن أخلص منه مهما أبذل من جهد وأتكلف من عناء .

لقد صدق «موسيه» حين شبه قلب الرجل النقى بالإناء العميق ، إذا استقر الدنس فى قاعه فليس إلى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . إن قلبى هو هذا الإناء ، وقد استقر فى قاعه هذا الدنس . ولقد حاولت تطهيره ما استطعت إلى ذلك سبيلا : بالتفكر والتدبر ، بالقراءة والدرس ،

بالجد والنشاط، بهذه المثل العليا التى كنت اتخذتها وأجدّ فى السعى إليها، وأوفق أحيانا فى هذا السعى بما حاولت من إرضاء الأساتذة ، و بما حاولت من إرضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من إرضاء الجامعة ، و بما بلغت من هذا كله، ولكننى مع ذلك لم أستطع أن أمحو من قرارة نفسى هذا الدنس الذى استقر فيها فلزمها لزوما ، واتصل بها اتصالاً لا انقطاع له .

لقد خيّل إلىّ فى بعض الأوقات أنى قد خلصت من الشر و برئت من الإثم ، وارتفعت عن النقيصة ، وأنى قد كفّرت بالمرض الطويل الثقيل المهلك عما اقترفت من السيئات ، وأنى قد طهرت نفسى بالعلم تطهيراً ، وكرّمتها بالدرس عن كل ما يفسدها و يشينها ، وأخذت أكبر نفسى وأغالى بها ، ولكننى تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها ، وأن القضاء نافذ بالغ أجله مهما نفعل ومهما نحاول . وقد عرفت قضاء الله فى أمرى . فأنا رجل موكل بالجد واللهو معا ، أبلو اللذة حتى أصل إلى أقصاها ، وأبلو الألم حتى أنتهى إلى غايته ، أُقبل على العلم حتى كأنى لم أُخلق إلا للعلم ، ثم أقبل على اللهو حتى كأنى لم أخلق إلا للهو . أُقبل على العلم فلا يصرفنى عنه صارف مهما يكن، وأقبل على اللهو فلا يشغلنى عنه شاغل مهما يكن . يتاح لى الغنى و يلم بى الفقر ، فلا يمنعنى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم إن كنت مقبلا عليه ، ولا من المضى فى اللهو إن كنت منصرفا إليه . وقد عرفتْ إلين — إن كنت تذكر إلين — من أمرى هذا كله، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت إن رأتنى مقبلا على العلم تهملنى حتى كأنها

لم تعرفنى قط ، وإن رأتنى مقبــلا على اللهو تَغنَّت بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط . وأنا يا سيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو . وقد بقى لى شىء من إرادة ، فأنا أنفقه فى تنظيم أمرى على وجه ما ، وأود لو استطعت أن ألائم بين هذين العدوين اللذين يختصمان فىّ اختصاما ، وأود لو استطعت أن أقسم وقتى وجهدى بينهما قسمة عادلة ، فللعلم شطر منهما وللهو شطر آخر . فمن يدرى ! لعلى إن وفقت لهذه القسمة أن أصلح مزاجى بعض الإصلاح ، وأن أنظم أمرى بعض التنظيم ، وأن أنتهى إلى نتيجة أرضاها وأُرضى بها من لا بد أن أرضيهم من الناس . وقد أخذت فى هذه التجربة منذ أسابيع ، وأنا أبذل فيها جهداً عنيفا وألقى فيها شططاً شديداً ، وأخشى كل الخشية ألا أوفق لشىء . لقد أخذت أدرس اللاتينية ، ورتبت نظام الدرس مع الأستاذ ترتيبا رضيه وأقره ، فلما أخذنا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه لم نجد الى ذلك سبيلا . ولو أنك سألته عنى لأنبأك فى يأس وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس ، وبأنى أقدر الناس على العمل وأعظمهم حظًّا من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجد وأعظمهم نصيبا من الخيبة . أما فى أول أمرنا فقــد كان لا يزورنى إلا وجدنى مستعداً للقائه متهيئاً لدرسه ، وكان يزعم لى أنى سأتقدم للامتحان فى وقت قريب وسأفوز فيه فوزاً مبيناً . ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صُرِفت عن العلم ودُفِعت إلى اللذة ، وأفلتّ من السوربون ولزمت ذراعى إلين . ويزورنى الأستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مغرقا فى النوم لأنى أفنيت الليل ووجه

النهار فى اللهو والعبث والمجون ، فيستيئس اذا تكررت زيارته فى غير جدوى .

ولكنى أفرغ له بعدحين، فأسعى إليه وألح عليه، وأعوض ما فات وأصلح ما فسد، وأرضيه بعد سخط . وعلى هذا النحو تمضى حياتى منذ حين ، ولم يزدها شبوب الحرب إلا مضياً فى هذا النحو من الفساد والاضطراب . فقد محت الحرب من نفسى كل ثقة ، وذادت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة . فأنا أحيا لغير شىء ، أو قل إنى لا أحيا، وإنما أنتظر شيئاً مجهـولاً لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه ، ولو قد أردت لما استطعت . وأنا أنتظر هذا الشىء المجهول كما أستطيع أن أنتظره، مستعيناً عليه بالعلم والجد حين أفرغ للعلم والجد ، وباللهو والعبث حين أنقطع للهو والعبث . وقد يتاح لى أن أفكر فى ذلك ، وأن أمتحنه وأحاول أن أتعرف أسبابه ، فأشعر بأن نشأتى فى مصر هى التى دفعتنى إلى هـذا كله دفعاً وفرضت هذا كله علىّ فرضاً ؛ لأنى لم أنشأ نشأة منظمة ، ولم تسيطر على تربيتى وتعليمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب ، تدفعنى الى يمين وتدفعنى الى شمال ، وتقف بى أحياناً بين ذلك . ولو أنى بقيت فى مصر لأنفقت حياتى كما بدأتها فى هذ الاضطراب المتصل فى غير نظام وإلى غير غاية . ولـكنى عبرت البحر إلى بيئة لا يصلح فيها الاضطراب ، ولا تقوى على الحيـاة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة، فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الأثقال فيها ، ولم أحسن الخضوع لما تفرضه

من نظام واطراد . ثم كانت الحرب واضطربت الدنيا ، وأُضيفَ فى نفسى فساد إلى فساد واضطراب الى اضطراب ، ففقدت نفسى محورها — ان صح هذا التعبير — وأصبحت لعبة تتقاذفها الأهواء .

ما أشد حاجتى إلى قربك أيها الصديق ! فقد تقدر على أن تنفعنى ، ولكنى لا أستطيع أن أفرّ اليك من باريس ، فالموت أهون علىّ من ترك باريس ، ولا أستطيع أن أنقلك الى حيث أنا ، فالجامعة تحول بينك و بين هذا الانتقال . و إنى مع ذلك لأخشى على نفسى كل شىء، و إنى مع ذلك لأظن أنى لن أعود الى مصر — إن عدت إليها — سالماً موفور العقل مستقيم الملكات قادراً على النفع والإنتاج .

فلينفذ القضاء إذاً ، ولتتم كلمته . فلئن ذهبت فى غير نفع فما أكثر الشبان الذين يذهبون فى غير نفع هذه الأيام !

١٨

يناير فى . . . .

إن ظننت أيها الصديق أن فىّ بقية من عقل أو فضلا من إرادة، فانف عن نفسك هذا الظن نفياً . فالبرهان يقوم لى كل يوم على أنى أسعى الى الجنون فى سرعة تزداد بين حين وحين ، كما تزداد سرعة السقوط بالجسم الذى يهوى إلى الأرض بين ثانية وثانية . فان كنت فى شك من ذلك فاعلم أنى أنفقت فى القراءة وفى القراءة وحدها إجازة عيد الميلاد ورأس

السنة على حين كان الناس ينصرفون إلى ما ينصرفون اليه فى هذه الأيام التى هى أيام بهجة وعيد عادةً ، والتى يشوبها الحزن والألم . هذه المرة كنت أنا عاكفاً على «سيسيرون» و «تاسيت» قراءة وفهماً وترجمة . وكنت أجد لذة فى هذه الليالى التى أنفقها من وراء الباب مع الكتّاب القدماء والشعراء القدماء ، على حين يحيا الناس حياتهم ويجدون فيها ما يجدون من اللذات والآلام . وقد أُنسيت كل شىء وأنسيت كل إنسان . ولولا أن الخادم كانت تحمل إلىّ الطعام أو تدعونى إليه لأنسيته أيضاً . وقد انقطعت الصلة بينى و بين إلين فى هذه الأيام التى كان يجب أن تقوى فيها الصلة وتكون بمأمن من الضعف والفتور .

ثم انقضت الإجازة، وجعلت أختلف الى السربون ، فسمعت درس اللاتينية وظفرت بثناء الأستاذ ، وخرجت . ولكنى لم أذهب إلى بيتى ، وإنما ذهبت إلى حيث ألقى إلين . وقد لقيتها ، وأنفقت معها اليوم بعيداً عن باريس فى غابة من هذه الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفترق إلا لنلتقى بعد قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لأكتب إليك ، ولأظهرك من أمرى على أطوار هذا المرض الذى يسعى إلى ، أو يسعى فىّ سعياً حثيثاً . وثق بأن السربون لن ترانى غداً ولا بعد غد ، بل ثق بأنى لا أعلم متى ترانى السربون

وداعاً ياسيدى. إنى لأرى شبح الجنون بغيضاً مزعجاً ، ولكنى مع ذلك لا أهابه ولا أتأخر عنه ، وإنما أُقدم عليه إقدام المحب الجرىء . وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة إلين !

١٩

يوليو فى . . .

لم يكن الامتحان عسيراً، ومع ذلك فقد أخفقت فيه أجمل إخفاق وأروعه، هذا الاخفاق الذى لا يظفر الطالب فيه بدرجة أو بعض درجة، و إنما يظفر فيه بالصفر المريح . ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئاً؛ فقد تقدمت اليه سرًّا ، فلن أؤدى لها حسابا عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به علماً . لم أكن أشك فى الفوز ؛ فقد وعدنى به أستاذى الخاص الذى أتعلم عليه اللاتينية ، ووعدت نفسى به وتهيأت له كأحسن ما يتهيأ طالب للامتحان . ولكن أدركتنى نوبة المرض أو نوبة اللهو — ان أردت الدقة فى التعبير — قبل موعد الامتحان بأسبوعين ، فقضيت هذين الأسبوعين مع إلين ، نهيم فى الغابات إذا كان النهار ، ونطوف على الحانات إذا كان الليل ، ولا نلم بالبيت إلا مطلع الفجر .

كانت إلين تذكرنى بموعد الامتحان ، وتحذّرنى عاقبة هذا الجنون، وتصور لى جمال الفوز، وتمنينى تلك الأيام الجميلة التى سننفقها بعيداً عن باريس إذا كان الصيف . ولكنى كنت أعرض عنها أشد الإعراض ، وأزجرها أشد الزجر . فقد كان شيطان اللهو قد ملأ قلبي ونفسى وركب كتفى .

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد فى الذهاب إلى السوربون ولا فى دخول حجرة الامتحان ، وآخذ النص اللاتينى فأقرؤه وأقرؤه ، ثم أقرؤه وأقرؤه ،

فلا أفهم شيئاً ولا أصنع شيئاً . وأنا أبذل جهداً عقلياً عنيفاً لعلى أوفق لفهم جملة أو بعض جملة، فإذا لم أظفر بشىء رددت النص كما أخذته، وانصرفت إلى بيتى راضياً محزوناً معاً . ثم لا أكاد أخلو إلى هذا النص بعد ذلك بساعة أو ساعتين حتى أفهمه فى غير مشقة وأترجمه فى غير جهد، وأستوثق من أنى كنت خليقاً أن أفوز، وإذا قلبى يمتلئ سروراً وبهجة ، وإذا أنا أسرع إلى إلين فأنبئها بأنى جمعت بين الفوز والإخفاق معاً .

وداعًا يا سيدى ! سأنجح فى نوفمبر إذا لم يدركنى الشيطان . فأما الآن فإلى اللهو ، إلى اللهو المجنون الذى لا يعرف رفقاً ولا مهلاً ولا تفكيراً . إلى اللهو حتى يضعف العقل والجسم معاً ، وحتى أضطر إلى الراحة ثم إلى الجد اضطراراً .

٢٠

سبتمبر فى . . .

وإذاً فقد زرتَ فرنسا وأقمت فيها ، وستعود إلى مصر ولم يكن بينك وبينى هذا اللقاء الذى كنا نرجوه . ولست أدرى أيسوءك هذا أم لا يسوءك ، ولكنى أعلم أنه يسوءنى حقًّا؛ فقد كنت حريصاً على لقائك لأراك بعد أن طال افتراقنا ، وقد كنت حريصاً على لقائك لأستعين بك على نفسى وعلى ما يدهمها من الأحداث والخطوب . ولكن الجامعة أبت أن نلتقى، وأبت الظروف أن تطول إقامتك فى هذا البلد حتى تتاح لنا فرصة اللقاء . وإنى لأرجو أن تتاح لك عودة قريبة، فما أرى أنك قد زرت فرنسا ولا انتفعت بزيارتها،

وما أظن إلا أنك ستعود وفى نفسك حسرات لا تنقضى . فليس من الهين أن تدنو من الغاية ثم تردّ عنها ردًا ، ولا أن تشارف الأمل ثم تقطع بينك وبينه الأسباب . ولست فى حاجة الى أن أنبئك بأنى قد رفضت الإذعان لأمر الجامعة ، وأبيت أن أعود فى هذه المرة كما أبيت ذلك فى العام الماضى . وكيف تريدنى على أن أعود وقد أنفقت أعواماً فى فرنسا ، ثم لم أصنع شيئاً يحسن العودة به والاطمئنان اليه ، وإنما كان حظى من الفساد والشر أكثر من حظى من الصلاح والخير ! وماذا تريد أن أقول حين أعود إلى مصر فأسأل عما صنعت ؟ أأحدّث الناس عن فرنند و إلين وما لقيت عندهما مما أحب وما لا أحب؟ أم أحدث الناس بذلك المرض الذى ألح على جسمى حتى أشرف بى على الموت ؟ أم أحدثهم بهذا المرض الذى ألح على عقلى حتى أشرف بى على الجنون ؟

لا يا سيدى ! إن العودة إلى مصر شىء لم يقدَّر لى بعد. ولو أنى بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما أريد لما رضيت هذه العودة ولا أجبت إليها. فأنت تعلم أنى قد نذرت ألا أترك باريس حتى أصير إلى ما تصير إليه ، وحتى أرى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما أبعد الأمد بيننا وبين آخر الحرب كما ترى ! فالأسباب مقطوعة بينى وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شىء يجرى كما أحب ، فكيف أعود إلى مصر دون أن أصطحب إلين وليس لى إلى الحياة سبيل إذا لم أكن قريباً من إلين، أراها متى شئت وترانى متى أحبت ، وأفزع إليها حين

أضيق بحياة العمل والجد . و إلين فرنسية لا تريد أن تهجر وطنها ، ولا أن تفارق باريس و إن أعطيت ملء الأرض ذهباً . فإقامتى فى فرنسا قضاء محتوم لامندوحة لى عنه . وشهد الله ما أجد لذلك ألماً، و إنما أجد فيه اللذة كل اللذة . فاقرأ تحيتى على مصر إن شئت ، ولا تحدث أصحابنا بشىء من أمرى . و إن سألك أهلى عن بعض أمرى فقـل لهم ما يخطر لك ، ولكن احذر أن تنبئهم من حقيقة أمرى بشىء ؛ فما ينبغى أن نشق على هذين الشيخين ، وما ينبغى أن نشمت بنا الشامتين .

و بعد فإن أمور مصر محزنة حقا . أليس مما يسوء و يحزن أن يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استبقاء بعوثها فى أوربا حتى تتم ما أرسلت من أجله ؟

أو ليس مما يحزن و يسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشـاقة التى تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب و تحتمل أثقالها ونفقاتها ، وتضحى فيها بما تضحى به من الأنفس والأموال ، وأن نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر ؟ ولكن ماذا ينفع الحزن والأسى ، وماذا يجدى اللوم والتقريع ؟ لابد مما ليس منه بد . عد إلى مصر فأنت مضطر إلى أن تعود . ولأبق أنا فى فرنسا ، فأنا مكره على أن أبقى . وسنرى أيتاح لنا أن نلتقى ، وأين يتاح لنا أن نلتقى .

وداعاً أيها الصديق و إن لم يكن بيننا لقاء .

٢١

وأعود إلى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها فى القاهرة فأرى صاحبى. ولكنى لا أكاد أعرفه لولا صوته الذى لم يتغير ولولا ضحكاته العراض التى لم تهذبها الإقامة فى باريس؛ فأما غير ذلك من أطوار نفسه فقد تغير حتى أنكرته أشد الإنكار. فصاحبى محزون مغرق فى الحزن، حتى ليفسد عليك رأيك فى الحياة إن لقيته فى هذا الطور. وصاحبى مسرور مغرق فى السرور، حتى ليثير فى نفسك الإشفاق عليه من هذا الإغراق فى السرور إن لقيته فى هذا الطور أيضاً. وصاحبى ينتقل من الحزن إلى السرور ومن السرور إلى الحزن فجأة فى غير تهيؤ ولا تدرج ولا انتظار لهذا الانتقال. وإنما أنت مع رجل بائس يائس، سيئ الرأى فى الحياة والأحياء، قد أظلم كل شىء فى وجهه وفى نفسه، فلست تسمع منه إلا شراً ونكراً. وإذا أنت ترى هذا الرجل وقد وثب فجأة من نقيض إلى نقيض وأصبح فرحاً مرحاً، منطلق اللسان بالثناء على كل أحد وعلى كل شىء، ممتلىء الفم بهذا الضحك المزعج العريض، لا يتكلم هادئاً ولا يتحرك هادئاً، وإنما هو عنيف فى لفظه، عنيف فى حركته، عنيف فى كل شىء، حتى إنه ليلفت إليه وإليك الناس، وحتى إنه ليخيفك من أن ينكر الناس مكانكما ويدعوكما إلى الصمت وإلى إيثار الهدوء.

وصاحبى إن حزن لا يعدل بالكتاب شيئاً، وصاحبى إن سُرّ لا يعدل

بالشراب شيئاً . وهو مسرف فى صحبة الكتاب يأخذ المجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده ازدراداً . وصاحبى مسرف فى الشراب إذا أقبل الليل عليه لم تكفه الزجاجة ولا الزجاجتان من معتق النبيذ ، وإنما يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو لا يعجز عن الشرب إلا حين تعجز يده عن تناول الزجاجة وصب شىء من روحها فى القدح . وإذا انتهى العجز بصاحبى إلى هذا الحد لبث مكانه لا يريم ، نائماً كالمستيقظ ، ومستيقظاً كالنائم حتى تنجلى عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبى يختلف إلى السوربون قليلا ولا يكاد يختلف الى القهوة ، ولكنه يلزم بيته فى أكثر الوقت . وقد يستخفى اليوم أو الأيام لا نعلم أين هو ، ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع إلين . ولم يتح لأحد من أصحابه ولم يتح لى بالطبع أن نرى إلين هذه أو نسمع منها أو نتحدث إليها ، حتى لقد كان يخيل الينا أنها شخص من أشخاص الأساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقاً فى وقت من أوقات سكره ولهوه . ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث ، وكانت أحاديثه لا تصور شخصاً مخترعاً ، وإنما تصور شخصاً حياً يذهب ويجىء ، ويعبث ويلهو ويعين على العبث واللهو ، ويدفع اليهما أحياناً . وكثيراً ما ألححنا على صاحبنا فى أن يعرّفنا إلى إلين أو يعرفها إلينا ، فلم نكن نلقى منه إلا إباء وإعراضا . وكان يقول : إن حب الاستطلاع إثم ، فما تريدون إلى إلين ؟ إنى أحدثكم من أمرها بما يعنيكم وما لا يعنيكم ، وإلين صاحبتى أنا لا صاحبتكم أنتم ، ولن يكون لكم منها إلا هذا الذى تسمعون عنها ، وإنه

لـكثير أكثر مما ينبغي . وكثيراً ما جد بعض أصحابنا فى تتبعه والبحث عن إلين فلم يظفر بطائل . ولولا أنى رأيت إلين بعد ذلك لما شككت فى أنها كانت شخصاً من أشخاص الخيال .

وقد أنفقنا عاماً دراسياً كاملاً على هذا النحو ، ألقى صاحبى بين حين وحين فأنكر من أمره أكثر مما أعرف ، ولا تتصل بينه وبينى تلك الأحاديث التى كانت تتصل بيننا فى القاهرة والتى كانت لاتنقضى ، وإنما تلتوى وتعوج ، وتخرج بنا من موضوع إلى موضوع ومن رأى إلى رأى ، حتى أضرع اليه فى أن يقفها لأنه أعيانى وأجهدنى حقاً .

لم تكن تتصل بيننا هذه الأحاديث فى باريس ، إنما كان يلم بحديث عن السوربون قليلاً ويطيل الحديث عن إلين ، مثنياً عليها حيناً ، شاكياً منها حيناً آخر ، واصفاً محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائماً .

ثم يفرّق الصيف بيننا ، فأذهب أنا إلى الجبل ، ويقيم هو فى باريس لا يكاد يفارقها إلا الى ضاحية من الضواحى أو غابة من الغابات ينفق فيها النهار أو بعض النهار مع إلين .

ثم أعود الى باريس آخر الصيف وقد قدمت اليه النبأ بعودتى فاذا بلغتها لم ألقه ، فاذا انتظرته لم يسع إلىّ ، ولكن صاحبة الباب تصعد إلىّ ذات صباح وتدفع الى قطعة من الورق ما أشك فى أنها قد اقتطعت من علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات: «صديقك مريض ينتظر عيادتك» .

فأسرع إليه فأراه . ويا شر ما أراه ! أرى صاحبى مريضاً لاتظهر عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الإيمان بأنه مريض ، لايشكو شيئاً ، ولكنه واثق كل الثقة بأنه مريض . قد عرض على الأطباء فلم ينكروا من صحته شيئاً ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض و بأن الأطباء مخطئون. ولا أكاد أتحدث اليه وأتبسط معه فى الحديث حتى أستيقن أنا أيضاً أنه مريض وأن مرضه أخطر جدًّا مما يظن ومما كنت أقدر ؛ فقد انتهى إلى الجنون الذى كان يخشاه أو إلى شيء قريب جدًّا من هذا الجنون .

كان يتحدث إلى فى أمر السربون أو فى أمر إلين فيستقيم الحديث استقامة حسنة ،ولكنه لا يكاد يسمع فى الجو أزيز الطيارة — وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطيارات فى باريس — حتى ينهض بل يثب و يهم بالخروج . فاذا سألته ما خطبه ؟ أجاب : ألست تسمع أزيز هذه الطيارة فإنه دعاء لى إلى الخروج .

وكان قد استقر فى نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقته و بغضه والكيد له . وكان يشترى منها أكثر ما يستطيع شراءه ، و ينفق فى قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذى تكيده له ، وهذا المكر الخبيث الذى تمكره به . ولم يكن يلقى فى ذلك كبير جهد ؛ فقد كان هو ألمانيا ،وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجهاً إليه ومنصبًّا عليه انصباباً . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفاءه لباريس و إقامته فيها حين تفرق عنها الناس . ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق !

ثم يعظم الأمر قليلا قليلا ، وإذا الحلفاء جميعاً يمكرون به ويكيدون له ويدبرون له السوء . ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألمانيا ! وأصبح ذات يوم مرتاعاً حقًّا ؛ فقد جاءه النبأ — ولست أدرى كيف جاءه ولا من أين جاءه — بأن الحلفاء يأتمرون به لينفوه إلى المغرب الأقصى . وهو ينبئنى بأنه قد جد فى السعى لصرف الحلفاء عن هذا الإثم العظيم والظلم القبيح ، فكتب إلى جماعة من أساتذته فى السربون وإلى جماعة من كبار الساسة فى مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة . وهو ينتظر ردهم عليه ؛ ولكنه ضيق بباريس هذه الخائنة الماكرة التى لا تعرف جميلا ، ولا ترعى حقًّا ، ولا تحفظ ود الصديق ، والتى هى فى حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه الفتاة الخائنة التى كانت تسمى إلين والتى قد جحدت حقه ونسيت مودته وأعرضت عن حبه إعراضاً ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر به مع الماكرين . وهو يلح على فى أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه فى مدينة أخرى أقل خيانة وغدراً من هذه المدينة الخائنة الغادرة التى يسكنها الخونة الغادرون . والطبيب الذى يعوده لا يرى بأساً بأن يفارق باريس ويقيم فى مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هى إلا أن يستقر صاحبى فى أحد الفنادق غير بعيد من باريس فى طرف غابة من الغابات . ومن هذا الفندق تصدر رسائله التى لا تنقضى إلى أساتذة السربون وإلى رجال وزارة الخارجية وإلىّ أنا . ويالها من كتب تلك التى كانت تنتهى إلىّ فى الصباح والمساء من كل يوم ! حسبى أن أثبت منها هذا الكتاب القصير .

نوفبر فى . . .

لم يبق لى أمل ولا شىء يشبه الأمل أيها الصديق ؛ فقد أجمع الحلفاء أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون فى ذلك مراجعة ولا شفاعة ، بل هم قطعوا على الشفاعة كل طريق ، فأفسدوا علىّ حتى أساتذة السربون الذين كانوا يحبوننى ويؤثروننى أشد الإيثار . فهؤلاء الأساتذة يتلقون رسائلى فلا يردون عليها ، وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطى فهم لا يقرءون كتبى إذا انتهت إليهم . والغريب أن أحدهم فلاناً ... كان قد امتلأ قلبه حبًّا لى وإعجاباً بى حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت إليه ابنته . وهذه الخِطْبة هى التى غاظت إلين فصرفتها عنى . ولست أدرى من أبلغها أمر هذه الخطبة التى كانت سرًّا ، إلا أن يكون هذا الصديق الماكر الذى تعرفه ، فقد شربت معه ذات ليلة وتبسطت فى الحديث . فلما أصبحت انتهت إلىّ رسالة القطيعة من إلين .

وإلين من غير شك هى التى أفسدت علىّ قلوب الحلفاء وصورتنى لهم فى صورة العدو الخطر المخيف ، وهى التى زينت لهم نفيي إلى المغرب الأقصى. يا لغيرة النساء ! ويا لكيد النساء ! ويا لضعف الرجال ! ويا لسذاجة الرجال! وإن كانوا أساتذة فى السوربون أو ساسة محنكين . لم يبق لى أمل فى عفو الحلفاء . عفوهم عن ماذا ؟ وهل جنيت عليهم ذنبا أو اقترفت فى ذاتهم إثما ؟ لقد كنت أدافع عنهم فى كل فرصة وأذود عن حقوقهم بالقلم واللسان ، ولكنهم قد أجمعوا أمرهم على نفيي ، وأنت وحدك القادر على حمايتى ووقايتى

من هذا النفى . وماذا تريد أن أصنع فى المغرب الأقصى ! أليست مصر أولى بى ! أولست أنا أولى بمصر ! إن فى مصر حميدة وإن فى فرنسا إلين ، وجوار حميدة على بغضها لى أهون علىّ من جوار إلين ؛ فان حميدة لم تؤلب على ، ولم تكد لى ، وإنما تلقت إساءتى اليها بالصبر والعفو . أما إلين فقد تلقت إحسانى اليها بالجحود والعقوق . فلا مقام لى فى هذا البلد ، ولا سبيل إلى الرحيل الا أن تعيننى عليه وأن تحكم تدبيره إحكاما . فعيون الحلفاء يقظة لا تنام ، وجواسيسهم منبثة فى المحطات والثغور . ولست أدرى كيف تريد أن تدبر الأمر ، ولكنى معتمد عليك فى إخراجى من هذه الأرض . وأنا مستعد للتنكر فيما شئت من الأشكال والأزياء حتى أبلغ مصر . فاذا وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلمونى حين أساءوا الظن بى وسمعوا فىّ وشاية الوشاة ، فمن يدرى! لعلى أعود إلى فرنسا فأتم درسى فى السربون وأقترن إلى هذه الفتاة التى أحبها حباً لا حدّ له، والتى قد رضينى أبوها لها زوجا، والتى كدت أسعد بزواجها لولا إلين ، ولولا وشاية هذا الصديق الخائن . صدّقنى إن من ضعف الرأى وفساد العقل أن تطمئن إلى هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصدقاء .

٢٢

وتحمل إلىّ صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا الكتاب :

سيدى

أنت تعرفنى من غير شك ، فكثيراً ما حدثك عنى صديقك . . .

وكثيراً ما حدثنى عنك، وقد صورك لى دائما على أنك أحب أصدقائه اليه، وأوفاهم له، وأحفظهم لسره. فانا أحمل إليك هذه الحقيبة بعد أن احتفظت بها عاما كاملا، لا لأنى كنت أنتظر أن يعود صاحبها إلىّ، فقد أيأسنى الأطباء من شفائه، بل لأنى كنت أجد الجهد كل الجهد فى فراقها، وفى فراق ما يتصل به من الكتب والمتاع. ولكن هذه الأعوام التى نحياها قد علمتنا الإذعان للقضاء، والخضوع لما ليس منه بد. فاليك هذه الحقيبة ياسيدى؛ فان لصاحبها من أبناء وطنه أهلا وأصدقاء هم أحق منى بما فيها وأجدر أن يفهموه ويقدروه.

وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جداً ومتاع ليس بذى بال، فهذه الغرفة طوع أمرك متى شئت أقبلت فأخذت ما فيها ووجهته حيث أحببت.

ولك ياسيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينقضى أو تهدأ لوعته قبل زمن طويل.

***

وقد حفظت هذه الحقيبة بضعة عشر عاماً لا أعرف من أمرها إلا أنها مملوءة بالأوراق. فلما أتاح الظالمون لى شيئاً من فراغ، نظرت فى هذه الأوراق فاذا أدب رائع حزين صريح، لا عهد للغتنا بمثله فيما يكتب أدباؤها المحدثون. وقد هممت بنشره وقدمت بين يديه هذا الكتاب. ولكن هل تسمح ظروف الحياة الأدبية المصرية باذاعة هذه الآثار يوماً ما.

178
48
130